دراسات لغوية

أصول اللغة العربية
بين الثنائية والثلاثية

دكتور توفيق محمد شاهين

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة ت ٩٣٧٤٧٠

دراسات لغوية

أصول اللغة العربية
بين الثنائية والثلاثية

دكتور توفيق محمد شاهين

الطبعة الأولى

جب سنة ١٤٠٠ هـ ـــ مايو سنة ١٩٨٠ م

دار التضامن للطباعة

٢٢ شارع سامى ميدان لاظوغلى

تليفون : ٣٠٥٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان »

صدق الله العظيم

تقديم

بفضل التقدم العلمى والتكنولوجى ، تقدمت الأبحاث اليوم كثيرا فى علمى (الفونتيك Phonetique) و (الفونولوجيا Phonologie) ، وحلت مشاكل كثيرة فى اللغة الانسانية بعامة .

وقد بحثت اللغات السامية فى ضوء المعايير الحديثة لعلم اللغة : (Linguistics) على يد المستشرقين أكثر من دراستها على يد أبنائها ، مع أنهم اقدر على ذلك من غيرهم ، لتشربهم روح السنتهم ، واسهولة ادراكهم لأسرارها وخواصها .. وأتت هذه الأبحاث بثمرات طيبة : وضحت الغامض ، وأزاحت السجف ، واستقرت بها أمور كانت غير قارة . واذا لم تسعفنا ظروف السبق فى الميدان العلمى ، فلا اقل من أن نحول اللحاق فيه .

ولغتنا العربية غدت — والحمد لله — احدى اللغات العالمية الكبرى فى المحافل الدولية ، فضلا عن انها لغة حضارة راقية ، وتنتمى الى أعرق الأسر اللغوية . ولها مشاكل مازالت تنتظر فصل القول فيها .

والساميات عموما — وفيها العربية — بميزة الاعتماد على الجذر والاشتقاق مما يدفع بدراسة النشوء والارتقاء لها ، عسى أن نعرف من هذه الدراسة ما يبدو أحيانا من اضطراب أو خلاف أو تناقضات أو نزاعات .. فى الضوابط ، أو التصريف ، أو المعنى فى القاموس .. على نحو ما نختلف أو نؤول أو نخرج ..

ومع اجلالنا لعلمائنا القدامى ، واستمطارنا رحمات الله تعالى ورضوانه عليهم ، جزاء ما بذلوا وقدموا .. الا اننا نقول : لو توفرت لهم عوامل التقدم (التكنولوجى) ، ولو نظروا فى الساميات عموما وما يجاورها ، فى عمق وشمول دراية ، لغيروا رأيهم فى أمور ، ولجاءت مؤلفاتهم القيمة لايعتورها غموض أو قصور فى بعض الجوانب ، ولكن يحفها التناسق المعنوى ، واللفظى المعقول فى اتساق يأخذ بحجز بعضه .

والعربية — من دون أخواتها الساميات — لانعرف من بدايتها ما نعرفه عن اخواتها ، لأن لشقيقاتها نصوصا كثيرة أوضحت معالم تاريخها .

بينما ما عثر عليه من نصوص عربية قديمة لاتعطى معرفة وافية بالبدايات الأولى فى تاريخ عربيتنا .

ولأن ما عثرنا عليه من نصوص قديمة للعربية بعيدة كل البعد عن النصوص الأدبية الجاهلية ، التى وصلتنا فى مستوى عال من جميع جوانب العربية : أسلوبا وصيغا واتقان معان ، ودقة موسيقى ..

ومعنى ذلك : ضياع حلقات عديدة من النصوص جعلت فجوات بين الأصول ، وبين ما نجده من حال العربية فى نصوصها الراقية فى الأدب الجاهلى : أى أن الدراسة اللغوية العربية بدأت بدراسة اللغة المدونة ، وما وصلنا منها يمثل حال فتوة وشباب . أما البدايات فقد لفها صمت التاريخ ، واهمال الأبناء ، ورمال شبه الجزيرة العربية بقسوتها ورهبتها .

* * *

وفى هذا البحث المتواضع أردت أن القى بعض الأضواء على مشكلة « الثنائية ، أو الثلاثية » فى الأصول العربية ، وهى مشكلة المع اليها بعض اللغويين ، وتعرض لها بعضهم صراحة أو ضمنا ، لكن فى اشارات غير بعيدة ، ولا أبحاث عميقة ، مع أهمية البحث فيها وضرورته ، لأنها تمثل احدى المشاكل الكبرى للغتنا ، اذ هى وسيلة للتأصيل فى الدور التصريفى ، وكاشفة لتاريخ الاشتقاق ، وتطور المعنى ، وتدرج المبنى ، وازالة التضارب بين اشتجار المعانى وتنافرها أو اختلافها :

فحين تحدث القواميس — مثلا — ، أن معنى (نهر) : الزجر ، أو الجريان والسيولة ، أو الضوء والسنا .. يحار المرء أمام هذه التناقضات أو الاختلافات ..

ولكن حين ترشد (الثنائية) الى أن الجذر الثنائى : (نه) من (نهر) ، يعطى معنى : النهى ، والزجر ، والنهر . وأن الجذر الثنائى : (هر) يشير الى معنى السيولة حين جريان الماء وسيولته . وأن الجذر الثنائى : (نر) ، يكتنز بحرف العلة فيكون : نارا أو نورا فيبدد الظلام .. حين تتدخل

« الثنائية » وتعين وترشد وتقرب وتدنى — فيزول الاضطراب ، وتتغير النظرة الى بعض ما ظنناه خللا ، أو قصورا ..

والله اسأل أن يكون بعض التوفيق حالفنى فيما سطرت فى هـــذا الجانب ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب .

توفيق محمد شاهين

مقدمة

اللغة ظاهرة اجتماعية غير مادية .. وتحتاج لذلك عند تحديد عناصرها ومعرفة ماهيتها الى عمليات متعددة غاية فى التعقيد والتداخل ، لتشعب عناصرها بين الارسال والاستقبال والتداعى والترجمة ، ويسبق كل ذلك تفكير وتقدير وتدبير : ((**فتبارك الله أحسن الخالقين**)) (المؤمنون : ١٤)

فهى أكثر من أصوات ، وأكثر من أن تكون أداة للفكر وأكثر من أن تكون تعبيرا عن الأغراض لجماعة ما . ولذا صدق أن يقال : ان الانسان صار باللغة انسانا ، وبلغ بها العقل منتهاه ، وأخذت بها الحضارة أوجها ذروة واتســاعا .

وحين ترقى اللغة برقى أهلها ، تأخذ حيزا من القداسة ، يرفع شأنها ، ويدفع استمرار وجودها ، ويتيه بها أهلها .

وليس بغريب ــ اذن ــ أن يكلف بأبحاثها الملوك والرؤساء والمفكرون والفلاسفة فضلا عن سدنتها وعلمائها ، فأبحاث تأصيلها وادراك كنهها لم تنقطع منذ فجر التفكير حتى الآن ، لما لها من أهمية وغرابة .. اذ أنهـا فى الواقع جزء من كيانها النفسى والروحى .

ودارت الأبحاث اللغوية ــ وتدور ــ حول التطور الخارجى للغة ، وحول التطوير ــ الداخلى لها : اى فى مجال البنية والطبيعة الصوتية من جهة ، وفى مجال الوظيفة الاجتماعية استعمالا واستمتاعا من جهة اخرى .

وعلى كثرة الأبحاث المتتابعة والمستمرة فى ماهية اللغة ، فان نتائج الأبحاث لم تأخذ ــ غالبا ــ صفة التعقيد الجامع المانع ، ويرجع السبب فى ذلك الى أن بعض الأبحاث ذات الصلة الوثيقة باللغة ما زالت تحبو فى دنيا الكشف والمعرفة كتشريح المخ البشرى ، وتصنيف وظائفه وكشف مخبوئه ، وديناميكية عمله المبهر المثير .

ورحم الله علماءنا القدامى ، فقد أسهموا بجدية وأصالة فى هذه الأبحاث اللغوية بما أسعفتهم الوسائل وتيسرت لهم السبل . فاكتشــفوا طرقا ،

وأرسوا قواعد ، وأضافوا ورجحوا .. فهم لم يكونوا عالة ، كما لم يكونوا حملة بريد ، ولا ناقلى رسائل . كما يرميهم خصومهم وشانئوهم .

ومنذ القرن الثانى الهجرى كان كتاب سيبويه أشهر كتاب يصف ميادين الأصوات والصيغ والتراكيب وتتابعت الكتب القيمة بعده .

وخير من يكفينا مؤنة النزال عند التحدى بتفصيل أدق واشمل وأعمق، واخص علامتنا : ابو الفتح عثمان بن جنى (٣٩٢هـ) — طيب الله ثراه — بما قدم من بحوث مبتكرة فى فكر ثاقب فرض نفسه على الزمن بالدقة والأصالة والخلود ، ولعله خير من عرف اللغة الانسانية الأولى بأنها : « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » ، فأشار الى الطبيعة الرمزية الصوتية للغة من جهة ، والى وظيفتها الاجتماعية بين ناطقيها من جانب آخر ، وان كان التعريف غير مانع ولا جامع كما يقول علماء المنطق ، فى شرط التعريف .

* * *

ولغتنا العربية اصيلة ، تنتمى الى عائلة لغوية كبيرة عريقة عراقة التاريخ ، تعرف : « باللغات السامية » كما اطلق عليها (شلوتزر) العالم الألمانى وزميله (ايكهورن) .

وقد لعبت الشعوب التى تكلمت مجموعة هـذه اللغات على مسرح الحضارة العالمية دورا حضاريا رئيسيا خلد على الزمن .

والعربية غنية ثرة ، حملت فى ثناياها عوامل تزكيتها ونمائها ، ومن ثم سايرت التطور الحضارى والفكرى ، وعبرت فى يسر عن الفكر الأصيل بكل ابعاده حين أضحت لسان القرآن الكريم ووعاءه ، ووسعت الفكر الدخيل حين مست الحاجة الى التطلع اليه والاستعانة به .

* * *

وقد قطعت الأبحاث اللغوية — اليوم — شأوا بعيدا فى العديد من مجالاته ، بفضل ما تهيأ للباحثين من وسائل التقنية والتكنولوجيا الحديثة ، فكان الجديد والمفيد والمثير ، ثمرة لعاملين متكاملين ، هما علم الفونتيك (Phonetique) وعلم الفونولوجيا (Phonologie) بما اسدى

للدراسات اللغوية خدمات جلى وكشف ابهام كثير من أمور اللغة ومشاكلها التى كانت تدور فى تجويفات غير علمية ، وفى توهمات وتهويمات لا يتقبلها العقل الحصيف ، ولا تثبت أمام النقد على أسسه وتحت مقاييسه .

ولم يعد بعض العلماء اليوم أسرى بتعلم لغة واحدة ، فعرف كثير منهم أكثر من لغة ، لتتضح أمامه الرؤية ، وتزول عنه حواجز القصور ، والحيز الضيق ، والأفق المحدود .

ولغتنا العربية — كغيرها من اللغات — لها قضايا ومشاكل ، منها ما هو خاص بها ، ومنها ما هو مشترك بينها وبين أخواتها الساميات وغيرها، مع ما يلحق بكل منها من لهجات ، مما أوجب اعتبار المجموع كلغة واحدة تفرقت خواصها وأسرارها فى مختلف اللغات الأخوات ، ويقتضينا ذلك البحث والاستعانة بميزات لغة لفائدة شقيقتها ، فى انارة غامض ، وتوضيح مشكل ، فى لغة بما هو واضح وصريح فى لغة أخرى . وبذلك يتم ايضاح التناسق المعنوى والمنطقى ، وازالة ما قد يبدو متضاربا ومتناقضا بين أخوات السامية ، كما يزيل أخطاء ما وقع فيه الأقدمون من خلط وقصور ، نتيجة الجهل بلغة أخرى ، أو القصور فى معرفة مميزات وتشابهات المجموعات اللغوية كل على حدة .

* * *

وللغتنا العربية قضية خلافية ، طال عليها الأمد ، ولم يتضح وجه الحق فيها حتى الآن الا وهى قضية الأصل الثلاثى أو الثنائى لها .

لأن الساميات عموما تنفرد بميزة ظاهرة : الا وهى الاعتماد على الجذر والاشتقاق ، مما يوجب دراسة النشوء والارتقاء للأصول عسى أن تحل مشاكل الاضطراب فى القواعد أو الضوابط اللغوية بمعنى أصح ، وتزول نقاط الخلاف فى الشذوذ والاضطراب ، وتخف مشاكل القاموس فى النزاعات والمتناقضات .

وفى هذه العجالة — سنحاول — بفضل الله — رسم القسمات والسمات البارزة فى هذا البحث الشائك والزاخر ، والصعاب المنهجية لهذه القضية العلمية ، عبر القرون . عله يسد ثغرة شاغرة ، ويجبر جانب قصور فى قلة الأبحاث العلمية للثنائية والثلاثية .

ومبدئيا – يلاحظ أن بعض الباحثين اللغويين يعد مرحلة « الاشتراك فى الحرفين – أو فى غير الثلاثية – مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيها مجديا الا ضمن البحث التاريخى ، لأنها بدء مرحلة غير ثابتة ، أى غير مبنى على بحث واستقراء واسعين للغة العرب ، التى تبلغ موداها : زهاء ثمانين الف مادة ، كما ذكر فى معجم (لسان العرب) (١) وأكثر كما فى غيره.

ولكننا ندعو الى مزيد من البحث فى هذه القضية للبت فيها ، اذ هى وسيلة للتأصيل ، وبخاصة لجلاء الطور الذى سبق التصريف ، وبيان أواصر العربية بأخواتها الساميات ، واستخراج النتائج التى من شأنها بيان التلاحق والتناسق المنطقى والمعقول ، فى سير توقع الألفاظ وتطور مداليلها (٢) .

* * *

ثنائيون وثلاثيون :

وكثرة من علماء اللغة يرون أن الرس والأصل للغتنا العربية هو الثلاثى: اذ لابد من حرف يبدأ به ، وحرف يوقف عليه ، وثالث هو الواسطة بينهما وتلك نظرة الصرفيين ايضا .. واذا ثبت أن البحوث النحوية والصرفية فى اللغة العربية قد تأثرت الى حد كبير بالفكر اليونانى الاغريقى : فلا غرابة فى أن يركن فريق من الباحثين فى هذه القضية الى القول بالرس الثلاثى ، ومن هنا يريحون ويستريحون على قياس من المنطق الصورى .

على أن من علمائنا القدامى والمحدثين من بحث أمر الثنائية أصالة ، أو عرضا ، أو افترضوا وجودها فى مصنفاتهم .

ويصف الأب مرمرجى الدومنكى – سادن الثنائية – العلماء الذين طرقوا باب الثنائية عرضا أو افترضوا وجودها فى مصنفاتهم بأنهم : « معتقلون فى سجن النظرية التصريفية العتيقة ، القائلة : بأن أصول الكلام أسماء وأفعالا مركبة من ثلاثة أحرف لا اقل » .

---

(١) فقه اللغة العربية – د . ابراهيم نجا ص ٨٩ .

(٢) معجميات عربية سامية : للأب مرمرجى الدومنكى ص ١١٢ .

وعد الأب مرمرجي — تحت عنوان — ثنائيون أجانب ومصنفاتهم (١) من العلماء الأجانب — الذين بحثوا أمر الثنائية فى لغتنا العربية وأيدوها — زهاء الخمسين عالما ، ابتداء من أوائل القرن الثامن عشر ، حتى منتصف القرن العشرين الميلادى .. بعضهم بحث أمر الثنائية فى ايجاز على صورة أبحاث ومقالات ، وبعضهم توسع فى بحثها فأخرج مؤلفات ومصنفات خاصة (٢) . فأمرهم لم يقتصر على العلماء العرب ، وانما أسهم العلماء الأجانب بسهم وافر فى بحث الثنائية فى أسس لغتنا العربية ! ؟ .

ومن أشهر علمائنا العرب الذين بحثوا أمر الثنائية عرضا ، أو افترضوا وجودها :

— ابن جنى (٣٢٠ — ٣٩٢هـ) فى « الخصائص » .

— وابن فارس (٣٩٥هـ) فى « مقاييس اللغة » .

— والراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ) فى « غريب القرآن » .

— والبيضاوى فى « أنوار التنزيل » .

— وابن منظور الافريقى المصرى (٦٣٠ — ٧١١هـ) فى معجمه « لسان العرب » .

— ومحب الدين الزبيدى (١١٤٥ — ١٢٠٥ هـ) فى قاموسه « تاج العروس » .

واشهر من بحث أمر الثنائية من علمائنا العرب صراحة :

— أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧م) فى « سر الليال فى القلب والابدال » .

— وجورجى زيدان فى « الفلسفة اللغوية » .

— وابراهيم اليازجى فى « مجلة الطبيب » اللبنانية .

— والأب أنستاس الكرملى فى « نشوء اللغة العربية » .

— وعبد الله العلايلى ، فى « مقدمة لدرس لغة العرب » .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٥ — ١١ .

— وعبد الله أمين ، فى كتابه « الاشتقاق » .
— وبطرس البستانى (١٨١٩ — ١٨٨٣م) فى مقدمة معجمه « البستان » .
— والشيخ طاهر الجزائرى ، فى كتابه (الكافى فى اللغة) .
— ومنصور بوصالح فى مجلة (الميناء) اللبنانية .
— والأب . أ . س . مرمرجى الدومنكى ، مزاول الثنائية فى كتبه العديدة

ومن هؤلاء العصريين من ينقل عن المستشرقين ، أو يستلهمهم رأسا كما فعل جورجى زيدان .

أو لاحقا بواسطة سابق .

ومن الطريف : أن من العلماء من يقول بأن أصل العربية — أحادية . قبل أن يكون ثنائية ، كما سنرى .

* * *

علم اللغة والتقدم التكنولوجى :

فى عصر التقدم العلمى استفادت العلوم كثيرا ، واستفاد بالتالى (علم اللغة) فدخل مجال التصوير والتسجيل والتحليل ، وعند رصد النتائج كان التقدم ملموسا ومرضيا (١) .

وعلوم اللغة متشابكة مع غيرها متداخلة فى ارتباط وتأثير وتأثر ، فلم يبق المجال للغويين وحدهم ، بل حتم عليهم العلم الحديث أن يفسحوا مجالا لغيرهم من علماء : الأصوات ، والتشريح ، ووظائف الاعضاء ، ومبادىء علم الاجتماع ... ليقولوا كلمتهم ، فيتكامل بحث المقدمات على أسس منهجية ، ومن ثم تكون النتائج مرضية .. هذه ملاحظة .

---

(١) والأزهر حامى تراث العربية والاسلام راى فى عام ١٩٦٢ الا يتخلف عن الركب الحضارى فى مضماره ، وحتى يكون عطاؤه اوفى واكثر حداثة ، وحتى لا يفوته القطار خطط لمنح وابتعاث الى دول لها شأو فى مضمار التقدم .. الا أن هذه الخطط تعثرت حينا ، ثم بدلت الى دول شرقية تلهث لتلحق بعصر التكنولوجيا ، لأسباب ليس هنا مجال يبردها .. فكان الأمل سرابا واهيا لا يبشر بنهضة ، ولا يعد لثمرة ، والأمل اليوم كبير فى بعث ونهضة تعيد للأمر سواءه واستواءه ، فتكون الافادة والاستفادة ..

وعمل اللغويين عموما — فى الحقيقة — كما يرى أصحاب المنهج الوصفى : هو تقرير واقع ، لا تعليل لنشأة هذا الواقع ، وتفسير الأسباب التى أدت اليه ، لأن اللغة قديمة جدا ، ولم يأتنا خبر نشأتها الأولى ، ولعلها نشأت مع الانفعالات والعواطف فى جوانبها المتعددة وسايرت الفكر فى أدواره وتطوره .

فقد تحدرت جميع اللغات الى شعوبها ممزوجة بانعدام المنطق اذن ، فهى ليست منطقية ولا قياسية تخضع لقوانين صارمة كما يقول أرسطو ، وكما يبالغ أصحاب المنهج الفلسفى .. وحسبنا اذن أن نقترب من الحقائق فى احتفاء ويقظة ، ونفترض ونقيس : فى اطار الأشباه والنظائر ، وما تسفر عنه الحفريات ، وما تسديه المقارنات .

وموقف أصحاب المنهج الوصفى — اذن — كموقف ، « أصحاب الفقه عندما يقولون : « ما جاء على أصله لا يسأل عن علته » (١) . وابن جنى يقول :

« العلل فى جوهرها تعود الى المتكلم العربى : لا الى عوامل لفظية » ويقول ابن مضاء القرطبى : « لو أن العرب قالوا : أن زيدٍ ، بتشديد النون وجر (زيد) ، أو أن زيد ، برفع (زيد) ، لقبلنا قولهم على انه الفصيح .

ولكننا نعلم أولادنا الا يقولوا : ان زيد ، أو أن زيد ، بالجر أو بالرفع » .

ومعنى ذلك : أن علوم اللغة لا تخدم بالمنهج الفلسفى الصارم ، لانبهام تاريخها القديم ، وندرة شواهدها . وانما نستفيد ويفيدها المنهج الوصفى ، الذى يصف الواقع ، ويسأل الشقائق ، ويفرض المقبول ، ويقيس الغائب على الشاهد .. وتلك ملاحظة أخرى .

وحين نفكر فى حال اللغة العربية قبل ظهور المسيحية (أى قبل ظهور الاسلام بسبعة قرون) نجد أنفسنا فى ظلام دامس .. فليس بين أيدينا نصوص عربية ترجع الى تلك العهود : فأقدم ما عثر عليه لا يكاد يجاوز القرن الثالث الميلادى ، وليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودة

---

(١) نظريات فى اللغة ، للاستاذ أنيس فريحة ص ٨٤ .

قبل المسيحية ، أو انها احدث من شقيقاتها السامية ، كالعبرية مثلا . بل، يؤكد لنا المستشرقون أن اللغة العربية المألوفة لنا ، قد احتفظت بعناصر قديمة ترجع الى السامية الأم ، أكثر مما احتفظت به الساميات الأخرى » (١) .

ومعنى هذا : أننا فقدنا نقطة البدء التى ننطلق منها لدراسة لغتنا .. ولكن أبحاث النحو المقارن للغات السامية كشف كثيراً من سمات وعلاقات، الملامح والوشائج اللغوية لهذه المجموعة .. ومن هنا تحتم أن تتم دراسة العربية وتطورها وتاريخها فى ضوء الساميات ، وقد توافرت وتضافرت، نواح عديدة لتلك الدراسات فى الحقبة الأخيرة من العصر الحديث .

واذا نادى البعض بدراسة المجموعة السامية فى ضوء المجموعة، الحامية ، لتجاوز المجال الجغرافى للمجموعتين ، فهو جد مصيب ، لمظنة، التأثير والتأثر كداب اللغات حين تتجاور وتحتك .

وتتسع الدائرة الدراسية عند الأب أنستاس الكرملى ، حين يقرر بأن العربية قد أثرت حتى فى مجموعة اللغات الهندية والأوروبية ، يقول : « كل كلمة ذات هجاء — مقطع — أو هجاءين ، فى الرومية أو اليونانية ، ولم تكن من أصل منحوت ، بل من وضع أصيل ، أو توقيفى ، فلابد من أن، يكون لها مقابل فى لغتنا المضربة » (٢) .

ويستشهد لرأيه بأمثلة كثيرة .

ومعنى ذلك أن عبئا جديدا سيضاف على عاتقى بأحثى اللغات بعامة ، ولغتنا العربية بخاصة ، غير أن المشتقات تهون . بجانب ازاحة السجف ، وتبديد الأوهام عن حقبة موغلة فى القدم من تاريخ لغتنا العزيزة ، بقيت، حينا من الدهر فى حجاب مستور .

وبعد هذه الملاحظة الثالثة ، نسلم فكرنا للمنهج الوصفى فيقودنا عبر رحلة مضنية ومثيرة فى تتبع جانب لغوى للغتنا العربية ، يتطلب مزيدا من البحث لمزيد من النور .

---

(١) اللهجات العربية أ . د . ابراهيم أنيس ص ٣٣ .

(٢) نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها ، للاب انستاس مارى، الكرملى ص ١٥٨ م.

الأحـادية فى اللغـة

نقف الآن وقفة بين يدى « الأحادية فى اللغات بعامة ، وفى العربية بخاصة » .

يرى بعض العلماء أن كل لغات العالم القديم تعاقبت عليها أطوار وأدوار ، وان طورها الأول ، جعل من كل كلمة من كلماتها (هجاء واحدا ، فتوضع الكلمة احداها بعد الأخرى ، بحسب نظامها النطقى لتأدية المعنى المقصود ، ولغة الصين الى الآن على هذا الوضع) . ويؤيد ذلك الشيخ (١) العلايلى للغات كلها (٢) — وان دورها الأول : (ذو المقطع السيط ، أى أدنى المقاطع ، مثل (a) وهذا هو الدور الذى ولد المقاطع الأحادية ، والتى هى الجدول الهجائى الفينيقى المتخيل ، وسنذكره فيما بعد ، ويرى ان هذا الجدول يحدد المعانى الكلية التى صاحبت نشأة الحرف فى السنة الناطقين الأوائل باللغة .

وهذه المرحلة قديمة قدم التاريخ ، تربط بين اللغة والانسان الفطرى الذى (لا يكاد يرتفع عن مستوى النوع ، الذى هو فصيلة من فصـائله المشاكلة) .

---

(١) الشيخ العلايلى دائب النظر فى اللغة العربية ، بفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ويجيد عدة لغات ، وشرع فى محاولة جريئة لوضع (المعجم العربى) وحده ، لوثوقه من نفسه فجاءت محاولة فذة ، حبذا لو تبنتها المعاجـم اللغوية ، لتتم ما بدأ .. وما رأيته فى (بيروت) على مدى عامين — أمد الله فى عمره — الا عاكفا على قاموس قديم يراجعه ، أو فكرة لغوية يحللها ، أو شاردة وواردة يقيدها .

(٢) مقدمة لدراسة لغة العرب . للشيخ العلايلى ص ٢٣ .

ويرى الشيخ أن هذه الأصوات لم تنطبع بطابع خاص يميزها ، بل كانت جارية مجرى الأصوات الاضطرارية ، التى تولدت عن الانفعالات ، ولم تتشكل فيها الأصوات ولم تتميز فيها المقاطع : (كالأنين ، والعنين ، والأحيح ، والهمهمة ، والزحير ، والنحيم ....) وضرب لذلك مثلا بالمقطع (عو) بضم العين ، الذى يدل على الحيوانات الزئيرية و (وا) الذى يدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين ، وعنه نشأ الفعل (وو) بمعنى وصل فى العبرية . ثم تطورت هذه الأصوات حتى اصبحت ذات أغراض ثابتة بعد تولد المقاطع الأحادية ، ومنها تكون الجدول الهجائى ، والذى أخذت منه كل لغة ما يناسبها من اصوات ، وكل حرف صامت ، أو مصوت (حركة) فى هذا الجدول له دلالة مستقلة و « من الممكن جدا تعيين دلالات هذه الحروف بأصواتها حين كانت لغة .. على شىء من الافتراض المقلوب، وسبيل هذا التعيين المعلات (اى الأفعال المعتلة) مطلقا وبالأخص اللفيف مطلقا فى العربية ، وليس اعتمادها بأخذ معانيها المعجمية على وجه التحديد وانما تنتقل فيها بالمقارنة الى ما هو الأدخل فى تفكير الساذجين واعتباراتهم » .

واحال الشيخ العلايلى على لغات سامية ، للحصول على نماذج تقرب الدلالة الأصلية للحرف أو الصوت :

فاللغة (الفينيقية) استخدمت فى رسم مقطع الألف (ع) شكل راس الثور ، ومعنى هذا المقطع أيضا هو راس الثور .

ومثل هذه الحروف كانت تدل على أجناس معانيها الفينيقية فى العهود الأولى .

فبداية استعمال الانسان اللغة كانت أحادية ، فى صورة اصوات وحروف منفصلة ذات دلالات قديمة ، ثم تطورت هذه المقاطع الأحادية الى ثنائية وثلاثية .. كما صورها الشيخ العلايلى فى افتراضاته وتصوراته المبنية على الشواهد وسنة الرقى ، وارتقاء الأدوار .

الجدول الهجائى الفنيقى :

نثبت هنا نص الجدول الهجائى (١) ، الذي رآه الشيخ العلايلي نواة للغة فى دورها القديم :

١ ــ الهمزة : تدل على الجوفية ، وما هــو وعاء للمعنى ، وتــدل على الصفة غالبا .

٢ ــ الباء : تدل على بلوغ المعنى فى الشىء بلوغا تاما ، وعلى القوام الصلب بالتفعل .

٣ ــ التاء : تدل على الاضطراب فى الطبيعة ، أو الملابس للطبيعة فى غير ما يكون شــديدا .

٤ ــ الثاء : تدل على التعلق بالشىء تعلقا له علاقته الظاهرة ، سواء فى الحس او فى المعنى .

٥ ــ الجيم : تدل على العظم مطلقا .

٦ ــ الحاء : تدل على التماسك البالغ ، وبالأخص فى الخفيات ، وتدل على المائية .

٧ ــ الخاء : تدل على المطاوعة والانتشار ، وعلى التلاشي مطلقا .

٨ ــ الدال : تدل على التصلب ، وعلى التغير المتوزع .

٩ ــ الذال : تدل على التفرد .

١٠ ــ الراء : تدل على الملكة ، وعلى شيوع الوصف .

١١ ــ الزاى : تدل على التقلع القوى .

١٢ ــ السين : تدل على السعة والبسطة من غير تخصيص .

١٣ ــ الشين : تدل على التفشى بغير نظام .

١٤ ــ الصاد : تدل على المعالجة الشديدة .

١٥ ــ الضاد : تدل على الغلبة تحت الثقل .

١٦ ــ الطاء : تدل على الملكة فى الصفة ، وعلى الانطواء والانكسار .

١٧ ــ الظاء : تدل على التمكن فى الغؤور .

١٨ ــ العين : تدل على الخلو الباطن أو الخلو مطلقا

١٩ ــ الغين : تدل على كمال المعنى فى الشىء .

---

(١) المصــدر السابق ص ٣١٠ .

٢٠ — الفاء : تدل على لازم المعنى (اى الوضع فى المعنى الكنائى) .
٢١ — القاف : تدل على المفاجأة التى تحدث صوتا .
٢٢ — الكاف : تدل على الشىء نتج عن الشىء فى احتكاك .
٢٣ — اللام : تدل على الانطباع بالشىء بعد تكلفه .
٢٤ — الميم : تدل على الانجماع .
٢٥ — النون : تدل على البطون فى الشىء ، او على تمكن المعنى تمكنا تظهر أعراضه.
٢٦ — الهاء : تدل على التلاشى .
٢٧ — الواو : تدل على الانفعال المؤثر فى الظواهر .
٢٨ — الياء : تدل على الانفعال المؤثر فى البواطن .

وفى نظرة سريعة للمعانى التى اثبتها الشيخ للجدول الهجائى ، نجد تمكنه واحاطته اللغوية ، لطول معاناته وكلفه باللغة .

كما نجد أن المعانى تحيط بحاجيات الانسان الأول ، بل وتفوقها ، ففيهـــا :

الشىء وصفته ، واللين والصلابة ، والاستقرار والقلق ، والتماسك والتلاشى ، والتفرد والانجماع ، والغلبة والانكسار ، والتوقع والمفاجأة ، والطبع والتطبع ..

ولذا يدعونا الشيخ العلايلى واضعو اللغة الجديدة الى الاقدام على الوضع ، لتفى لغتنا بما نطلبه منها ، بدون تردد أو خوف ، لأنه : «بتقريرهذه القواعد للاشتقاق أصـــبح الوضع معبدا جـــدا : فهو من موقع المـــادة فى التفريع ، ومن هيئة — اجتماع الحروف يعين الخصوصية فى غير تكلف .

« .. فروح الشيخ الثائرة تدعونا للوضع الجديد ، وهى دعوة حرية بالنظر والتفهم والتنفيذ ، حتى لا تتهم لغتنا بالعقم أو القصور والجمود » (١).

والشيخ فى تصوره السالف يصور مرحلة هو رائدهـــا وحـــاديها ومنشدها ، ولا دليل فيها ينير الطريق ، وجاءت — مع ذلك — افتراضاته مرضية ومقبولة ، ونرجو أن تتقبل .

---

(١) فى التطور اللغوى ا . د . عبد الصبور شاهين ص ١١٣ .

ومن ثم فلا نرى الاعتراض عليه بأنه يضرب فى (ميتافيزيقا التاريخ) ، أو انه يخلط بين مراحل النشاط اللغوى ونشأة اللغة ذاتها .

وأن التمثيل من لغات أخرى هروبا من انعدام امكانية التطبيق على لغتنا : فهن شقيقات يسرن الطريق فى الدراسة جنبا الى جنب ، أوأن الدعوة للوضـــع الجديد ربمـــا تنقلب الى عملية اختراع عربية أخرى ، أو اقحام اشتقاقات اخرى مخترعة تبعدنا عن مألوف لغتنا .

أو أن الدعوة ربما تتطور من تطوير بناء نافع الى عملية تدمير واعصار لتدمير لغوى خطير :

فالأمن متوفر ، والحماية مضمونة ، لأننا نسير على أسس ، ولا نبنى من فراغ ولا فى هواء .. والشيخ العلايلى مجتهد . ورائد يؤسس لمرحلة يقوم فيها الافتراض والتصور ، ومراعاة سنة التطور بدور كبير .. وهى على كل مرحلة تصورية أن كان فيها وهم قليل ، ففيها خيال خصيب ، وارهاص بأن فى لغتنا غناء ، وأنها لا تمد يدها كثيرا للاقتراض ، وانما تمدها للاقراض .

على أن الشيخ العلايلى لم يكن بدعا بين كثير من اللغويين القدامى ، الذين أشاروا الى قريب من قوله هذا ، وبخاصة فى نظرية (المحاكاة) ، سواء من قال بها على انها ذاتية موجبة ، كما نادى (هيراقليطس) والصيمرى . أو أنها تواطؤية واعتباطية ، كما قال (ديمقريطس) . أو من ذهب مذهبا وسطا بين هؤلاء وهؤلاء .

وقد تلقف ابن جنى النظرية عن الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، ثم تحمس لها ودافع عنها كثيرا فى (خصائصه) : بأن أصواتا معينة تدل على معـــان معينة . وأن بين ترتيب الأصوات ومراحل ما تدل عليه ان كان ما تدل عليه حدثا مناسبة طبيعية ظاهرة . وقد سمى الباب الأول : (الاشتقاق الأكبر) ، وسمى الثانى : (تصاقب لتصاقب المعانى) ، وسمى الثالث : (امساس الألفاظ اشباه المعانى) . (١) كما سيجىء

بل وأضاف العلماء أن اختيار الحروف وتشـــبيه أصواتها بالأحداث

---

(١) الخصائص لابن جنى ٢/ ١٣٥ .

المعبر عنها بها ترتيبا ، وتقديم ما يضاهي أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسـيط ما يضاهى اوسطه ، سـوقا للحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب . (١) كما سنذكر .

وفى العصر الحاضر ذهب مذهب الخليل وسيبويه وابن جنى طائفة من علماء العربية ، نذكر منهم — على سبيل المثال لاعلى سبيل الحصر — الأستاذ محمد المبارك ، والدكتور صبحى الصالح ، والأب مرمرجى الومنكى ، وجورجى زيدان ، وخير الدين الأسدى (٢) .

بل ان بعض المعاصرين ذهب الى أن الأصوات تدل على معانيها مهما يكن موضعها من الثلاثى . وضرب بعضهم مثلا لذلك بلفظة (غرف) :

فالغين تدل على الغموض ، وهى بذلك تناسب أول مرحلة من مراحل حدث (الغرف) ، عندما يغيب الغارف يده أو مغرفته فى السائل .

وان الراء تدل على الحركة ، وهى تناسب المرحلة الثانية من الحدث عندما يحرك الغارف مغرفته فى السائل قبل أن يرفعها .

وأن الفاء تدل على الظهور والانفتاح والفصل ، وهذا يناسب آخـر مراحل الحدث عندما يرفع الغارف مغرفته فيفصلها عن السائل ، ويظهرها بعد أن كانت مستترة (٣) .

فلا مبرر — بعدئذ — لوصف الشيخ العلايلى — حين الم الى الجدول الهجائي الفنيقى — بالاسراف الزائد ، والخرافة المبنية على الأوهام ، والزعم المبنى على غير أساس ، والتكلف الجامح . . كما ذكر الأستاذ محمد الأنطاكى، حين يقول :

« وأسرف بعضهم فى هذا اسرافا زائدا أخرجهم من دائرة البحث العلمى المبنى على الحقائق الى دائرة الخرافة المبنية على الأوهام ، من هؤلاء الأستاذ عبد الله العلايلى ، الذى يزعم أن كل حرف من حروف الأبجدية

---

(١) الخصائص ٢/١٦٢ .

(٢) الوجيز فى فقه اللغة ، للأستاذ الأنطاكى ص ٣٥٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٥ .

العربية يدل على معنى خاص ، وأنـــه اذا عرفت معانى الحروف أمكن معرفة الكلمة العربية ، ولو لم تكن معروفة من قبل . ثم يمضى فيجعل لهذه الحروف معـــانى فلســـفية لا نظن انها خطرت يـــوما على قلب الانسان العربى ... » (١)

نقول : لاداعى لذلك الهجوم ، ولم يقدم المعترضون البديل ، ومحاولةالشيخ العلايلى ان كان فيها خيال كبير .. فالعقل يرفده ، وشواهد السابقين تسانده ، والوارد من الأمثلة يواكبه .. ولقد ذكر الأستاذ الأنطاكى فى كتابه : « اننا اذا طرحنا كل انواع التكلف الذى وقع فيه العلايلى وغيره ، فانه يبقى لدينا كمية كبيرة من الشواهد لايمكن تجاهلها . وهى تشير بما لايدع مجالا للشك : الى وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ والمعنى » . (٢) وبمثـــل ذلك اعترف (فندريس) العـــالم اللغـــوى ، وان بعض الأصـــوات أقدر من بعضها على التعبير عن معان معينة . وذكر أن النافين للارتباط بين اللفظ والمعنى اعترفوا بمثل هذا القدر من الارتباط (٣) .

وحسبنا اعتراف العلماء بهذه الظاهرة ، وان المكية الواردة والمعترف بها كبيرة .

فالأحادية ــ ولاشك ــ كانت مرحلة ، ثم تخطتها البشرية عندما سنحت لها فرصة تطور ، وظرف رقى وترق .

* وما فتئت لغات ــ حتى يومنا هذا ــ فى مجموعـــة الهند وأوروبه (كالهندية الصينية) تضع عدداً كبيرا من مفردات معجمها من حرف صامت واحد ، تؤثر فيه النبرات الصوتية (Tons) ينتقل بفضلها الى مفاهيم كثيرة ومختلفة ، كما فى (Fan) (٤) .

---

(١) الوجيز ، للأنطاكى ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ . وتهذيب المقدمة اللغوية للعلايلى الدكتور أسعد على ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) الوجيز ، للأنطاكى ص ٣٥٧ .

(٣) اللغة ، لفندريس ص ٢٣٦ .

(٤) الأصوات أ.د.ابراهيم نجا ، ص ٦٠ ، والألسنية العربية للاستاذ ريمون طحان ص ٧٧ .

فالكلمة الصينية تتكون من مقطع واحد مفتوح أو مغلق يدل على معنى عام يحدده السياق .

ويؤيد ذلك الدكتور محمد مصطفى رضوان ، فى مقاله القيم ، بمثل : (ت Ta) فهو يفيد معنى عظيم ، أو كثير ، أو يعظم ، أو عظم . والطريقة التى تتبع فى ترتيب الألفاظ تحدد المعنى المراد ، فاذا قيل : (ت كوك Ta Kuok كان المعنى ، الدولة العظيمة، وان عكسنا الترتيب، وقلنا: (كوك ت Kuok Ta) كان المعنى : الدولة عظيمة ولعل اللغات السامية — ومنها العربية — انتهجت هذا المنهج فى بداية أمرها .

أو قريبا من هذا المنهج ، بالرغم من أنه ليس لدينا من الوثائق التاريخية ما يفيد الجزم واليقين .

لكن غالب الظن أنها سارت ذات المسرب ، ثم انتقلت فى مرحلة ثانية الى الثنائية والثلاثية عبر آلاف السنين (١) .

وقد آمن بالتطور كثير من الباحثين فى تاريخ اللغات الآرية ، ومن أشهرهم : (ببPopp) من القدماء ، و (ود Wod) و (وتنى Whitney وجيرسبيرسين Jerspersen) من المتأخرين .

* * *

وقد أشار علماؤنا العرب الى أن للحرف فى اللغة العربية قيمة تعبيرية وقد افاض فى ذلك العالم اللغوى مجد الدين الفيروزآبادى ، فى مفتتح كل فصل وباب من كتابه (٢) .

وذكر بعض المحدثين أن حرف الحاء فى العربية يدل على : الانبساط والسعة والراحة أما حرف الغين ، فيدل على الظلمة والانطباق والخفاء ، والحزن ، ومثل لذلك بالكلمات : (غيم ، غم ، غبن ، غبطة ..) وقد تساءل

---

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ ــ سنة ١٣٩٢ هـ .
(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للعلامة الفيروزآبادى .

بعضهم بقوله : وكيف نفسر : (غنى ، وغنج ، وغلام) (١) وأقول : بقليل من التأمل ترد الى الخفاء والغبطة .

واحتفى الأستاذ محمد المبارك ـــ كما ذكرنا من قبل ـــ بظاهرة اشتراك ألفاظ من مواد مختلفة فى حرف واحد وفى جزء من معناها : فالألفاظ التالية ، وفيها كلها حرف الغين تدل على الغموض والاستتار ، وهى فى مجالات كثيرة : (غاب ، غار ، غاص ، غاض ، غام ، غرب ، غمض ، غم ، غش ، غز ، غص ، غط ، غبر ، غبش ، غبن ، غبق ، غفا ، غطى ، غفر ، غمر ، غرق ...) .

والنون فى الألفاظ التالية ، وفيها معنى الخروج أو الظهور : « نبع ، نبر ، نبت ، نبز ، نبه ، نبأ ، نجم ، نطق ، نفث ... » .

ولذلك يدعو الأستاذ المبارك الى البحث فى الصـــلات بين الحروف والمجموعات اللغوية مشيرا الى أن ذلك سيكون كاشفا عن أصول العربية وتاريخها الطويل ، وميزتها على أخواتها الساميات والى قياسياتها المطردة ، يقول :

« واعتقد أن البحث فى الصلة بين المجموعات الثلاثية وفيما يمكن أن أسميه (التركيب الذرى) للكلمة ، هو بحث تاريخى يرجع بنا الى عهود قديمة للغة العربية ، استقر فى نهايتها على شكل هذه المجموعات الثلاثية الرائعة ، التى كانت نتيجة تطور لمراحل تكوينية سبقتها ، تحتاج معرفتها الى بحوث تاريخية واسعة تتناول اللغات السامية جميعا ، وتنتهى الى تعليل بقاء العربية وحدها دون غيرها من الساميات . وتوحى هـــذه الأمثلة الى أن تركيب الكلمة العربية يشبه كثيرا تركيب المواد الطبيعية المؤلفة من ذرات متفاوتة التركيب » (٢) .

ويُعطينا الشيخ العلايلى تصورا مقبولا للقيمة التعبيرية للحرف المفرد ، لدور سابق ومرحلة موغلة فى قدم التاريخ البشرى : فيرى مثلا ، أن حروف (ج ب ل) تعطى تصورا صحيحا عن الجبل فى ارتفاعه وشموخه ،

---

(١) نظريات فى اللغة ص ١٩ .

(٢) عبقرية اللغة العربية ، للأستاذ محمد المبارك ص ٢٢ ، ٢٣ .

واتصاله وتمكنه ، يقول : (الجيم) معناه الارتفاع ، وحرف (الباء) معناه البيت وحرف (اللام) يرمز الى الملاصقة . والمعنى المؤلف من الحروف مجتمعة : (بيت مرتفع ملاصق للسحاب أو للأرض) ، وهو تصور صحيح ومقبول عن (جبل) .

ويحل كلمة (سمك) الى (كف الماء القوى) ، هكذا : (السين) معناه الدعامة وهو يرمز الى مطلق القوى . (والميم) ترمز الى المياه . (الكاف) بمعنى الكف وهو يرمز الى مطلق التبسيط فى صغر . وهذا أيضا تصور مقبول وصحيح عن (سمك) .

ومازالت الاعتراضات تتوالى على الشيخ العلايلى (١) : بأن الحرف وان أوحى بجزء من المعنى ، الا انه لا يملك التعبير عنه بانفراده ، ومعنى ذلك أن الحرف بمفرده تنعدم قيمته التعبيرية ، وان أوحى جرسه بشىء قريب من المعنى .

ومن علماء اللغة من أنكر القيمة التعبيرية للحرف الواحد ، صراحة ، ويرى « أن الطبيعة عينها ميالة الى الثنائية ، لا الى الأحادية » كما يتوهم بعضهم أن الانسان الأول بدأ يتكلم بحروف منفصلة ، لأن الحروف المنفصلة لا وجود لها الا فى جدول الأبجدية ، أى فى الكتابة لا فى اللفظ ، والسبب : أن أعضاء النطق عينها لا تخرج للتكلم (حروفا صامتة متفرقة) بل مقاطع مركبة من الصامتات ، تحركها الصائتات » (٢) .

وهذا الرفض المطلق لا نوافق عليه ، اذ أن لغتنا قد عرفت فعلا قيمة تعبيرية للحرف الواحد ، كما أوحت بفروق دقيقة بين حرف وآخر ، قرب مخرجهما أو اتحد .. كالفرق بين حروف (الحلق) الستة — الهمز والهاء ، والعين والحاء ، والغين والخاء — وتفاوت المعنى بين التعبير بالحاء أو الخاء ، كما فى قوله تعالى : « **فيهما عينان نضاختان** » (٣) وفى الأثر « كل اناء بما فيه ينضح » ففى الخاء شدة وقوة ، وفى الحاء ضعف ورخاوة ، مع انهما

---

(١) فى التطور اللغوى ص ٩٨ .

(٢) معجميات عربية سامية ، للأب مرمرجى الدومنكى ص ٩٨ ، وذكر (فندريس) مثل ذلك فى كتابه (اللغة ص ٢٣٦) .

(٣) الرحمن : ٦٦ .

(الخاء والحاء) حلقيان الا أن الآية عبرت عن شدة النضخ وأفاد الأثر رخاوته .. فضلا عن أن هناك من الحروف ، ما زال أمره محيرا : أفرغ من محتواه أم وضعته العرب كذلك كحروف العطف (الواو والفاء) وحرف الجر (الباء) .. فنحن نؤيد أن الحرف استعمل واستقل بقيمة تعبيرية فى مرحلة معينة ، حتى واكبته أسباب حياتية ومعيشية أخرى ، فنقلته مع صاحبه والمعنى الى دور أرقى من أدوار الحياة على سنة التدرج الطبيعى ، وأحيانا الى العكس .

وأحدث الآراء اليوم هو القائل : بأن اللغة نشأت كغيرها من الظواهر الاجتماعية نشأة ساذجة .

ثم تطورت بمرور الزمن وتتابع التجارب ، وقد أدى تباين المشاهدات التجارب وتنوعاتها ، واختلاف البيئات والأوساط والطبائع الى اختلاف اللغات .

من أسرار العربية :

اللغة — اذن — لم تبدأ — فى أول أمرها — بالمنطق والفكر ، ومن ثم تبعنا المنهج الوصفى فى تتبع تأريخها ومحاولة الكشف عن حقبها السحيقة ، ولم نتبع المنهج الفلسفى الاغريقى الذى ادعى أن اللغة منطقية .

وتنفرد مجموعة اللغات السامية بميزة ظاهرة ، هى الاعتماد على الجذر والاشتقاق وفى لغتنا العربية نجد أن كل مجموعة تشترك فى الجذر الأصلى ومعنى عاما يؤلف الطبقة الأصلية المشتركة لمفردات المجموعة . وثبات الحروف الأصلية يساعد على كشف العلاقات بين ألفاظها :

فالصديق والصداقة .. من مادة (الصدق) . والعدو ، وعدا واعتدى .من (العدوان) وهو التجاوز فى الظلم .

ومحصل ذلك : (أن المعانى العامة أو الكلية تتجمع فى مجموعات من الألفاظ هى أشبه بالقبائل العربية ، ويبقى فى اللغة دائما عنصر خالد ثابت فى مادة الألفاظ .. وفى معانيها » (١) . وبقيت محافظة على أنسابها مهما نأت ديارها .

وحين لمس علماؤنا القدامى المناسبة بين اللفظ والمعنى أشاروا الى تلك الظاهرة ، وتتبعوها من قديم : وعقد لها ابن جنى فصلا فى خصائصه ،

---

(١) عبقرية اللغة العربية ، للاستاذ محمد المبارك ص ١٩ .

بعنوان (باب أمساس الألفاظ أشباه المعانى) (١) ، ذكر فيه : أن الخليل ابن أحمد ، وسيبويه ، قد نبها عليه ، وأن جماعة اللغويين قد تلقته بالقبول .. وحددوا الأماكن التى تكون فيها هذه الظاهرة واضحة جلية .

كما تظهر فى الألفاظ التى تحكى أصواتا ، كخرير الماء ، وازيز القدر .

أو فى المصادر التى تتابع حركاتها ، كالغليان ، والدوران ، والجمزى والبشكى .

أو فى حروف اذا تصدرت الفعل نقلته من حال الى حال : فالفعل (غفر) يفيد ثبوت المغفرة ، وحروف الاستقبال ، تنقله الى طلب المغفرة ورجاء تحقيقها فى (استغفر) .

كما تظهر فى اختيار اللفظ المناسب للحدث قوة وضعفا ، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث : فالنضح (بالحاء) لرش الماء برقة ، والنضخ (بالخاء) لشدة فورانه وقوته ، اذ فى الحاء لين ورخاوة ، والخاء تزيد عليها شدة وقوة .. ومن هنا نلمح سر الاعجاز فى التعبير القرآنى عن متع الجنة ونعيمها : ((**فيهما عينان نضاختان**)) بالخاء ، وفى الأثر (كل أناء بما فيه ينضح) بالحاء . وأيضا مثل : (خضم) لأكل الشىء الطرى ، و (قضم) لأكل الشىء اليابس الجاف : اذ فى الخاء رخاوة ، وفى القاف صلابة . ولله در أبى ذر — رضى الله عنه — حين صاح منكرا على الحكام نعيمهم وترفهم وشظف عيش رعيتهم : (ويخضمون ونقضم ، والموعد الله) .

بل عد علماء اللغة من لطيف صنع العرب وحكمتهم اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبا ، وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط ما يضاهى أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود ويمثل ابن جنى لذلك بحروف (بحث) :

(فالباء) لغلظها تشبه بصورتها خفقة الكف على الأرض ، و (الحاء) لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما اذا غارت فى الأرض . و (الثاء) للنفث والبث للتراب (٢) .

---

(١) الخصائص ١/٥٤٤ .

(٢) الخصائص ١/٤٥٦ .

وأكثر من ذلك ، نجد أن المعنى العام باق مع تقاليب حروف المادة ، وقد نبه على ذلك القدامى كالخليل بن احمد ، وابن دريد ، والفارسى ، وسماه ابن جنى بالاشتقاق الأكبر . والمادة الثلاثية تعطى ست مواد فى تقاليبها ، والرباعية تعطى اربعا وعشرين ، والخماسية تعطى مائة وعشرين . وقد تستعمل كل التقاليب أو بعضها أو تهمل كلها لاهمال الأصـــل . فتقاليب (سلم) الستة تفيد معنى السهولة والأصحاب والملاينة .

وتقاليب (جبر) تدور حول معنى عام هو الشدة والقوة (١) فى (جبر جرب ، بجر ، برج ، ربج ، رجب) .

ويرى الشيخ العلايلى ، أن : « القاعدة تقضى بوجود جامع معنوى بين المقاليب الستة ، لايمكن أن يتخلف ، وان كان على بعد » (٢) .

وهكذا ظل الاشتراك فى كل الحروف أو بعضها ، مع الصلة الصوتية السبيل لمعرفة الأصل ، وفى معجم مقاييس اللغة لابن فارس الحشد الهائل والأمثلة الوفيرة لتبيان ذلك ، اذ قد شارك أصحاب المعاجم فى جمع الكلمات المشتقة من مادة واحدة فى باب واحد ، وزاد عليهم بتتبعه لمعانى مفردات الباب الواحد ، وارجاعها الى أصل واحد ، أو عدة أصول من المعانى .

ولذلك فنحن لانذهب مذهب الأب مرمرجى الدومنكى ــ وهو مسبوق فى ذلك الرأى ــ حين ينفى وجود علاقة طبيعية بين الصوت وحروف الكلمة ، وبين « المعنى المتعلق بها ، لأن الأصوات مجردة ليس من طبيعتها ما يجعلها دالة حتما على الشىء الفلانى ، أو الفحوى الفلانى ، وانما تنشأ الصلة بين الصوت ومعناته اتفاقا ، أو بارادة المتكلمين عن طريق السماع أو الاستعمال ... » الى أن يقول : « اننا لا نجحد أن لبعض الكائنات دويا ، وللحيوانات أصواتا ، بيد أن الناس يحاكون هذا الدوى ، وهذه الأصوات بطرق متباينة ، اذ ان كل فريق يتوهم سماع نوع من الدوى والصـــوت فيحاكيها ، طبقا لهذا الوهم » (٣) ونقول له : حسبنا الدوى والاصوات وتوهم المتوهمين ، ليصوغوا منه ما يفهمون وما ينطقون .

---

(١) الجمهرة لابن دريد ١ / ٢٠٧ ، والخصائص ١ / ٥٢٥ .
(٢) مقدمة ، للعلايلى ص ١٤٩ .
(٣) معجميات عربية سامية ، للاب مرمرجى ص ١٠٢ .

وقد بهرت هذه الظاهرة العجيبة فى لغتنا علماء اللغة ، وهى وشائج القربى والصلات الواضحة بين المجموعات اللغوية ، سواء اشتركت فى حرفين أو فى حرف واحد مما يوحى بأن القول بالأحادية فى نشأة اللغة له أساس : ثم تدرجت من هذا الدور نحو الاكتناز ، لتفى بما يطلب منها تبعة لمقتضيات التطور . .

فالكلمات المشتركة فى الحرفين (ن ، ف) تدور حول معنى الخروج ، مثل : (نفث ، نفح ، نفخ ، نقد ، نفذ ، نفر ، نفس ، نفع ، نفق ، نفل ، نفى)

وكل ما فيه حرف الغين (غ) يدل على الغموض والاستتار ، مثل (غاب غار غاص غاض غام غرب غمض غم غش غز غص غن غبر غبن غبق غفا غطى غرق غمر غفر) ...

وفى مقاييس ابن فارس الشىء الكثير من ذلك كما قلنا ..

وكانت اشارات علمائنا القدامى والمحدثين الى ذلك ايحاء وباعثا حثيثا بضرورة معرفة الرأى فى نشأة اللغة العربية والقول بالثنائية أو الثلاثية .

الا أن الاقدمين — من علمائنا — لم يشيروا صراحة الى القول بالثنائية وانها أصل الوضع ، وانما كان بحثهم تاريخيا ، يرجع باللغة الى عهود تحاول معرفة تدرج الفاظ اللغة وتطورها ، حتى استقرت فى طورها الأخير الى صورها وأشكالها المرضية والمعبرة والمفيدة .. وازدادت الأبحاث عمقا عند المحدثين فى ضوء أبحاث المجموعات اللغوية الأخرى ، وبخاصة فى الساميات .

* * *

نظرية الثنائية

النظرية الثنائية ، أو المذهب الثنائى فى اللغة ، يقوم على اعتبار الأصول اللغوية — فى الأسماء والأفعال — ثنائية : أى يتركب كل منها من حرفين أساسين وأن الأصول الثلاثية وما فوقها مستنبطة من تلك الأصول الثنائية .

ويرى الأب مرمرجى الدومنكى أن الجذر الثنائى يشمل المجموعة السامية فى عمومها ، يقول : « الثنائية » Bilitteralime هى النظرية القائلة بأن (الأصول) فى العربية ، وكذلك الحال فى أخواتها السامية : ليست الألفاظ ذوات الحروف الثلاثة ، بل ذوات الحرفين ، اذ من شأن الثلاثيات أن ترد الى الثنائيات » (١) .

وجورجى زيدان يرى « الثنائية » فى النشوء اللغوى بالاستقراء ، فيذكر أن الألفاظ الدالة على معنى فى نفسها ، يرد معظمها بالاستقراء الى أصول ثنائية احادية المقطع تحاكى أصواتا طبيعية » (٢) .

اى ان الثلاثى وما فوقه يرد الى ثنائى سابق ، لافى الاشتقاق فقط كما فهمه الأقدمون حين ذهبوا يطبقونه فى الابدال وتعاقب الحروف ، بل فى النشوء اللغوى أيضا .

ويشير زيدان الى بعض أسباب نشأة « الثنائية » ويؤكد الحصر والاستقراء ، يقول : « لغتنا مؤلفة من أصول محصورة عدا ، أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية ، التى ينطق بها اللسان غريزيا » (٣) .

والشيخ العلايلى يرى الثنائية دورا ثانيا من أدوار اللغة فى حياة الانسان ، الذى حاكى الطبيعة بقصد ، أو بغير قصد ، فأكسبته المحاكاة

---

(١) المعجمية العربية ص ٦ .
(٢) الفلسفة اللغوية لجورجى زيدان ص ٣٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٤ .

أكثر المقاطع الثنائية التى يمكن فرضها ، وبخاصة اذا كانت ناشئة عن ضم بعض المقاطع الأحادية التى يحتملها التعبير » ...

ويقرر الشيخ العلايلى — أيضا — أن (المعتل) هو ثنائى لفظا ، وان كان ثلاثيا خطا فى العربية : أى أن المعتل هو ثنائى الحق بالثلاثى ، وأنه أقدم ما حفظت اللغة من كلمات العهود السابقة (١) .

ويلاحظ أن الشيخ العلايلى — كما ذكر الدكتور عبد الصبور شاهين فى دراسته الواعية — لا يؤسس تصوره للثنائى على تصوره للأحادى ، بمعنى أنه لم يتبع فى الواقع وجود كلمة « أحادية » صارت الى الثنائية على أساس افتراضه السابق . ومن ثم نرى أفكاره تتكامل نظريا فقط ، دون أن يستطيع تأسيسها على تكامل لغوى » .

لكنا نلتمس العذر للشيخ ، ونبيح له التصور الذكى ممزوجا بخيال غير جامح فى فترة يعلوها الضباب ، ويلفها صمت التاريخ (٢) .

ويصور الأب انستاس الكرملى « الثنائية » وطريقة اكتناز الكلمات وتدرجها بأنها : « تطورت فى وضعها من هجاء واحد (أى مقطع) اصلا ، الى مضاعف من ثلاثى ورباعى : فيكون ثلاثيا اذا لم تتخيل الحركة فى الشيء، ورباعيا اذا تخيلتها فيه . وعلى هذا النحو تطور الهجاء الواحد (صر) بسكون الراء الى (صر) بتشديدها ، والى (صرصر) ، ثم تطور فى اتجاه آخر (صار) ، أو (صرى) ، وبذلك عرف المضعف والأجوف والناقص ثم المهموز(٣) .

ومعنى ذلك أن الثنائية كانت وفيرة وكثيرة فى وقت ما من عهود اللغة اذا لم تكن هى الأصل ، ثم تحول عدد كبير منها الى الثلاثى بالاضافة أو التضعيف ، وليس هذا خاصا بلغتنا العربية ، وانما هو قدر مشترك بين الساميات .

وأشار (الأقدمون — كما قلنا — الى مبدأ « الثنائية » ، ولكن لم ينصوا عليها صراحة ، وبدأ بها أصحاب المعاجم مواد قواميسهم عند ترتيبها : فبدأ الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ) بالثنائى فى معجم (العين) ،

---

(١) المقدمة ص ٣٠ .
(٢) فى التطور اللغوى ص ١٢٧ .
(٣) نشوء اللغة العربية ص ٢٠ .

واحتذاه ابن دريد (٣٢٥ هـ) فى معجم (الجمهرة) ، والأزهرى (٢٨٢ هـ) فى معجم التهذيب ، والقالى (٢٨٨ هـ) فى معجم (البارع) ، وابن سيده (٣٩٧هـ) فى معجم (المحكم) (١) .

وحددوا الثنائى بأنه ما تكون من حرفين ولو مع تكرار أحدهما ، وسموا الثنائى المضاعف : الثنائى فى الخط ، والثلاثى فى الحقيقة : الثلاثى الصحيح . والثلاثى المعتل : الحواشى والأوشاب (٢) .

ويكاد الأب مرمرجى أن يلزمنا القول بالثنائية ، كما الزم نفسه بها : فالرباعيات عنده « ليست مجردة كما يقول الصرفيون : بل هى ثلاثيات مزيدة ، والثلاثيات الشاملة : (المثال والأجوف والناقص والمهموز والمضاعف ومكرره) قابلة جميعها الرد الى (الرس الثنائى) مع استمرار المناسبة المعنوية بينهما . أما ما يتعذر رده من الثلاثى الى الثنائى فيعزى ذلك الى فقدان محاويها الأولية مثلما ضاعت ، أو لم ترد الأصول الثلاثية لبعض المزيدات أو المشتقات ، التى بلغ عددها الثمانمائة أو اكثر » (٣) فالرساس العربية عنده أوفر من غير العربية ، والثلاثى وما فوقه توسعات اشتقاقية للرساس الثنائية التى بدأت بها نشأة اللغة ، وعنها صدرت جميع التوسعات والاشتقاقات ، حتى صارت العربية عنده بها « أوفر ثروة من لغات العالم أجمع » (٤) .

* * *

● ويؤنس المقام أن نذكر بعض أمثلة ذكرها المؤصلون للثنائية تزيد الأمر ايضاحا ، وطرق اكتناز الثنائية لترتقى الى أعلى منها :

يقول جورجى زيدان : ان الجذور الثلاثية ترتد أصلا الى جذور ثنائية ، هى حوامل المعانى ، وليست الثلاثية سوى وسيلة لتنويع المادة اللغوية ، وتطوير الاستعمال الدلالى .

---

(١) راجع المعاجم اللغوية د . ابراهيم نجا .

(٢) المصدر السابق .

(٣) هل العربية منطقية ، للأب مرمرجى ص ١٤٥ .

(٤) معجميات عربية سامية ص ٧٩ .

فالأصل اللغوى « قط » حكاية لصوت القطع ، وهو ثنائى تأتى توسعاته بمعناته ، مثل : (قط ، قطع ، قطب ، قطف ، قطل ، قطم) وكلها أفعال بمعنى (القطع) من (قط) ..

وايضا مقارب المادة (قط) وهو « قص » يفيد تثليثه القطع ، مثل (قصب ، قصر ، قصف ، فصل ، قمم) وايضا مجانس (قص) وهو « كس » بمعنى القطع ياتى منه (كس ، كسر ، كسع ، كسم) . ومثله : « جذ » بمعنى القطع ، يأتى منه « جذ ، جذب ، جذر ، جذف ، جذم) وايضا : « جز » يأتى منه بمعنى القطع : (جز ، جزا ، جزر ، جزح ، جزع ، جزل ، جزم) (١) . وكل ذلك من باب القطع ، وهى ترد الى اصل واحد ، هو حكاية صوت .

وذكر الدكتور عبد الصبور شاهين أن هذه الأمثلة كلها نقلها جورجي زيدان عن كتاب المفتاح للسكاكي (٢) . اى أن كتاب المفتاح اشار الى الأصول الثنائية المشتركة فى المعنى العام ، وما ينوع المعنى من زيادة عليه .

والأب مرمرجي يرى : أن كلمة (ح ج) أصلها ثنائى ، لاسم صوت ينطقه المجهدون تخفيفا من عنائهم (٣) و «ثب» أصلها «ثب» بمعنى الحركة عموما (٤) وعنده أن : « نهى ، نهنه ، نهر) بمعنى الزجر (٥) .. أصلها (نه) بمعنى الزجر .

ولمعرفة الأب مرمرجى بكثير من اللغات السامية امكنته المقارنة اللغوية بين الساميات بالقاء الضوء على كثير من الأصول الثنائية التى بنى عليها نظريته فى « الثنائية » .

ولا ينكر أحد أهمية هذه الدراسات المقارنة ، اذ انها تكشف كثيرا من الغامض وما خفى على الكثيرين . ولذا نظر لكثير من الأفعال التى يقال

---

(١) الفلسفة اللغوية ص ٩٨ .
(٢) فى التطور اللغوى ص ٨٦ .
(٣) المعجمية العربية ص ٤٨ .
(٤) معجميات عربية سامية ص ٩٩ .
(٥) المعجمية العربية ص ١٣٠ .

بأنها ثلاثية فى العربية بنظيرها فى السريانية مما جاء على الثنائية فقط ، فذكر أن فى العربية (حم)بالتشديد ، يقابله فى السريانية بالتخفيف . و (مص ، مس) بالتشديد يقابلهما (مص ، مس) بالسكون . ويردف بأن « الثنائى وارد فى كل الساميات متصفا بمعنى حقيقى وتام » (١) .

وأرجع المضـــاعف الرباعى مثل : (مرمر ، قرقر ، دبدب ، لعلع ، لألا . .) الى ثنائيين مكررين .. ومن هذا شىء وافر فى العربية وكذا اللغات السامية .. ففى السريانية (bal-bal) (zal-zal) على وزن زلزل ، وبلبل ، وقد أمكنه جمع ٣٥٠ مادة منها فى العربية الفصحى وحدها ، ويوجد أكثر منها فى اللهجات (٢) .

وأكثر من ذلك : أن رسالة الألفاظ السريانية تفترض وجـــود الثنائية دون شعور وقصد منها (٣) .

طريقـــة اكتناز الألفاظ :

ومن علمائنا القدامى من اشار الى طريقة اكتناز المواد الثنائية لتصـــبح ثلاثية ، بزيادة حرف ، كابن فارس وابن جنى ، فى مثل : (نب) فيصبح (نبأ ، نبج ، نبح ، نبذ ، نبر ، نبس ، نبش) مع بقـــاء المعنى العـــام .

وعندالأب انستاس الكرملى : أن الهجاء الواحد (المقطع) ذا المعنى ، قد يزيد عليه هجاء أو اكثر ، مثل (رم) بالسكون فيصبح (ثرم ، جرم ، حرم ، خرم ، شرم ، صرم ، عرم ، غرم) .. ومثل : (نب) ومنهـــا (نبـــأ ، نبت ، نبث ، نبيح ، نبح ، نبذ ، نبر ، نبز ، نبس ، نبش ، نبض ، نبع ، نبغ ،) (٤) . وهى نفس طريقة القدامى كما أشرنا .

ويطبق الأب الكرملى النظرية على اللغة اللاتينية ، لأن الكلم عنده مبنى على محاكاة الطبيعة وعلى الهجاء الواحد غالبا ، فيقول :

---

(١) معجميات عربية سامية ص ٩٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٩٧ .
(٣) المصدر السابق ص ١٠٠ .
(٤) نشوء اللغة العربية ص ٣ .

«قد يتفق مصطلح العرب ومصطلح ابناء الغرب اذا اتفق الخاطران في توهم صوت الطبيعة ولا يكون هذا الأمر الا اذا كان ثم هجاء واحد ، او هجاءان اثنان لا اكثر . فمثال الهجاء الواحد قول العرب (رد) بالتشديد ولا جرم أن أصله (رد) بفتح وسكون ، وهو في اللاتينية Raddere ومن المعلوم أن Ere كاسعة (ما يزاد في الآخر) تكسع بها كثير من افعالهم ، اذن Raddare ليست الا (رد) العربية (١) .

والشيخ العلايلي يرى أن انسان الدور الثاني استخدم معاني الجدول الهجائي الفنيقي ، وضم بعض المقاطع الأحادية ليعبر عما في نفسه من معان ، ويمثل بلفظه (عبى) وهو ثنائي في صورة ثلاثي ، أو ثنائي الحق بالثلاثيات « فان العين تدل على الحيوان الزئيري ، والباء تدل على البيت ، وكـأن المعنى : حيوان البيت القوى ، الذى هو كناية عن الرجل . وقدوردت في العربية كلمات مثل (دد) بمعنى اللهو ، و (ببة) للطفل السمين أو لعبة ، ويردهما الشيخ العلايلى الى (ددا) المعتلة ، والى (البو) بمعنى ولد الناقة او جلد يحشى أى شيء لتتسلى به الناقة على ولدها (٢) .

واحتفظت القواميس العربية بثنائيات قديمة ، كأسماء الأسـرة : (أب ، أم ، اخ ، اخت أم ، ابن ، بنت ، حم) . وأسماء الأعضاء : (يد ، ، دم ، شفة ، لثة) .

وعلى مر العصور ، وترقى الانسان ضاقت الثنائيات عن التعبير عن المعاني ، فكان لابد من التوسع في صور لفظية جديدة ، لتلبية الحاجات الآنية والمستقبلة ، فكان لابد من الاكتناز والتوسع في الألفاظ الثنائية ، لتـدل على معان اضافية .

« ففرع العرب بزيادة حرف على الثنائى ، أو صوت ثالث ، ادى الى صورة لفظية جديدة (٣) .

فلجأت العربية الى طرق أدت الى اكتناز الألفاظ بالمد ، والتشديد ، وقد

---

(١) المصدر السابق .
(٢) مقدمة ص ١٣٣ .
(٣) الألسنية العربية لريمون طحان ص ٨٤ .

تداخل بابيهما . ايضا لجأت الى تحويل المضاعف ناقصا أو يحول المضاعف أجوفا ، أو يتخلى الناقص عن حرفه الأخير لصالح حرف صحيح ، والأمثلة على الترتيب (مص ، مصن ، شد ، شند) (رب ، ربا) (طم ، طمسا) .
(مد ، ماد . ضر ــ ضبار) . (ربا ، ربب) . (بسما ، سمق) .
(محا ، محق) . (رخا ، رخص) .

ــ ويوجز الأب مرمرجى طرق توسع الثنائيات ، إما :

(أ) بتكرار الحرف الثاني ، مثل : أم ــ أمم ، جل ــ جلل .

(ب) واما بالتكرار والمد معا ، مثل : أز ــ آزار ، أط ــ اطيط ، بر ــ برور .

(جـ) واما بزيادة تاء فى الآخر ، مثل سك ــ سكة ، تل ــ تلة ، جب ــ جبة .

(د) واما بالتكرار والمد والتاء معا ، مثل : ضر ــ ضروزة ، كز ــ كزوزة كزازة .

وكل هذه التوسعات المختلفة التوسع متضمنة منطوق « الدرس الثنائى » (١) المشتقة منه ، وقد أحصى منها الأب مرمرجى ٣٢٧ مادة .

وهذه التوسعات فى الكلمة تتخذ مواقع مختلفة :

(أ) فتسمى الزيادة تتويجا أو تصديرا ((Prefixe))اذا وقعت فى أول الكلمة مثل (جرم ، حرم ، خرم ، شرم ، صرم ، عرم ، غرم) . . تشترك فى (الراء والميم) وفى المعنى العام لها .

(ب) واذا وقعت آخر سميت : تذيلا ، أو كاسعا Sufflxie وهذا هو الغالب ، مثل : (قطب ، قطع ، قطف ، قطل ، قطم) . . تشترك فى (القاف والطاء) وفى المعنى العام وهو الفصل .

(جـ) واذا وقعت وسطا ، سميت : اقحاما ، أو حشوا in Fixe (٢) . مثل (قحم ، قرم ، قسم ، قصم ، قضم ، قطم ، قلم ،) تشترك فى حرفى (القاف والميم) والمعنى العام فى الشق والقطع .

---

(١) معجمات عربية سامية ص ٧٨ .
(٢) نشوء اللغة ، والمعجمية العربية ص ١٣٥ .

ويزيد الأب مرمرجي بأن المقرر عند علماء العربية قديما وحديثا ، وعند الأجانب من مستسيمين ــ علماء السامية ــ ومستعربين أن الزيادة تجرى بالتتويج والاقحام والتذييل . وفى كل حال من الأحوال يتم الأمر على سبيل الأغلبية ، أى بالسماع ، وليس بقياس محكم » (١) .

ولا مانع من أن يكون العرب قد اعتمدوا وتعمدوا تسكين الحرف الثانى فى (الثنائية) ، ثم شددوه ، ثم فكوا تشديده ، واستبدلوا ثانى المشدد بحرف يختلف عنه ، مرورا من الثنائى الى الثلاثى وغيره ، مثل (النون والفاء) بمعنى الخروج ، مع تخصيص حاصل بفعل تخصيصها ، فقالوا : (نف ، نف ، نفث ، نفح ، نفخ ، نقد ، نفذ ، نفر ، نفس ، نفع ، نفق ، نفل ، نفى).

وما قرره الأقدمون من الزيادة بالحروف على الرباعيات والثلاثيات ، يسوغ ــ عند الأب مرمرجي بكل حق وصواب تطبيقه فى الثنائيات . ومثل لما زاد على الثنائى بالأمثلة الآتية : (يقطين ، من قطن أى أغنى ، وترفل من رفل ، وزنبيل من زبيل ، وعنصل من عصل ، وذمعط من ذعط .. وبلسن من بلس ، وعبدل من عبد .. وعد من ذلك شيئا كثارا فى العربية وبقية الساميات) (٢) .

فالزيادة والترقى من الأقل الى الأكثر ، كانت طريقا مألوفا ومعروفا للعرب فى توسيع المواد وزيادتها وتنويعها ، لتقابل المعنى الجديد . . كما كانت هناك زيادات متنوعة تجرى بضرب من الاعتباط ، اى لدواع غير داعى الدلالة على معنى خاص ، أو على دور معين ، كما ذكر الأب مرمرجي . وضرب مثلا لذلك :

بالزيادة للالحاق ، لمحض الموافقة بين وزن وآخر ، ليعامل معاملته ، مثل : (قعدد ، وجابب ، وشملل) فى التذييل . و (حنظل وحوقل ودهوز) لزيادة النون والواو والهاء حشوا .

وزيادة للغنة ، مثل : قنبرة من قبرة . وانجاص من أجاص ، وخنزير من خزير . وزيادة لتقوية الحركة ، دون قصد معنى معين ، مثل : (برع من برا ،

---

(١) معجميات ص ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

وينسب اليه (برنى أى برانى) و (توقع من توقى) ، (شبفع من شفى) و (بدا وبدع من بدأ) .

وزيادة لعذوبة اللفظ وتسهيله مثل (يا ابتى ، وعصاتى ، ودد ، بدل من يا أبى وعصاى ودد) .. و (فدنى وقطنى) باقحام النون . و (لعلت ، شمت ، ربت) بالحاق التاء .

وزيادة لاقامة الوزن فى الشعر ، نحو (تبيضضى) عوض تبيضى .

وزيادات أخرى تجرى دون قصد اشتقاقى ، مثل : (خوارنة ، جمع خورى) و (أبهات وأمهات) باقحام الهاء . وكذلك النسبة الى (صنعائى ، رجوانى ، ويرانى ، وصيدلانى) باقحام النون .

ويخلص من ذلك الأب مرمرجى الى ان اللغة تتبع السنة الطبيعية ، وتخضع لأحوال الانسان المختلفة ، ولأعضاء نطقه ، وللتطورات الاجتماعية والمؤثرات . كما انها فى بعض اجزائها قياسية منتظمة محكمة ، وفى البعض الآخر سماعية : لا ضابط ولا قيد لها ، وقواعدها ليست قواعد حسابية رياضية (١) .

وكثيرا ما سمعت الشيخ العلايلى يطلق على قواعد العربية ضوابط لا قواعد ، تأييدا لذلك .

ولتوفر الأب مرمرجى على دراسة الثنائية ، وطول نظره فيها ، وتقصية لها ومزاولتها ، أمكنه بعد التقصى والاختبار أن يصنف الحروف التى تقبل الزيادة على الرساس الثنائية من باب الأغلبية والاطلاق ، كما يلى :

(أ) حروف تصلح أن تكون متوجة ، ومقحمة ، ومذيلة وهى : (ا ، ت ، ر ، ع ، ل ، م ، ن ، هـ ، و ، ى) .

(ب) حرفان يصلحان للتتويج والتذييل ، وهما الحاء ، والشين .

(حـ) خروف تستخدم للتذييل ، وهى (س ، ب ، ذ ، ك ، ق) (٢) .

ثم افاض فى شرح ذلك وتفصيله فى مصنفاته اللغوية الكثيرة ، تأييدا لدعواه

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٧ ، ١٠٨ بتصرف .
(٢) فقه اللغة العربية د . ابراهيم نجا ، ص ٨٣ .

ليثبت دعائم الثنائية التي نصب نفسه محاميا لها، ومدافعا عنها طوال حياته .

ومن استعراض الأمثلة السابقة يمكن القول بأن الألفاظ في العربية جاءت من أصليين أساسيين، خصهما بمعنى واضح حرف ثالث، أي أنها عرفت عبر تاريخها الحافل مفاهيم تعود الى أصول غير ثلاثية، وان ارتكزت بعد تطور وأدوار — على أسس ثلاثية .

والحرف الثالث الذي حدد المراد من المعنى العام، يتنوع حسب ما يتطلبه المقام:

« فان أراد العرب ابانة شيء عن شيء وفصله عنه مع معاناة ومشقة قالوا : (قطع) وان احبوا اخذ شيء من آخر دون معاناة او مشقة قالوا : قطف ؛ لقوة العين وضعف الفاء »(١) اللهم الا اذا عن غرض بلاغي فيتجاوز عن ذلك، كقول الحجاج بن يوسف : (انى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها)، فلشدته وهوان أصحاب الرؤوس، جاء التشبيه بالزرع والقطاف .

ويعزز ابن دريد في (جمهرته) وجهة نظر الفريق القائل بأن الكلمات المشتركة في حرفين وفي معنى عام يضمها كانت في الأصل ثنائية المقطع نظرا الى الصورة الملفوظ بها ، دون التفات الى الحرف المكرر بمثابة حرفين، وان كان في الحقيقة ثلاثيا . يقول ابن دريد : « والثنائي الصحيح لا يكون حرفين البتة الا والثاني ثقيل (أي مضعف) حتى يصير على ثلاثة أحرف . . . اللفظ ثنائي والمعنى ثلاثي . وانما سمى ثنائيا للفظه وصورته ، فاذا صرت الى المعنى والحقيقة كان الحرف الأول أحد الحروف المعجمة ، والثاني حرفين مثلين أحدهما مدغم في الآخر ، نحو (بت يبت بتا) بمعنى قطع ، وكان اصله بتت فادغموا التاء في التاء ، فقالوا : « بت » وأصل وزن الكلمة فعل ، وهو ثلاثة أحرف ، فاما مازجوا الادغام رجعت الى حرفين في اللفظ، فقالوا : بت ، فأدغمت احدى التائين في الحروف المعجمة »(٢) .

« فالنظرة الى اعتبار المضعف الثلاثي ثنائي الصورة تبدو بجلاء ووضوح عند الأقدمين في جمهرة اللغة لابن دريد ، وفي المقاييس لابن فارس ، بل ان

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٦ .

(٢) الجمهرة ١ / ١٣ .

في جمهرة اللغة لابن دريد ما يدل دلالة اكيدة على توثيق النظرة عنده : فانه عند الكلام على الثنائي ينهي القول على جميع مواده صحيحا أو معتلا ، قبل أن ينتقل الى الثلاثي » (١) .

والمحدثون تتبعوا هذه النظرية ونظروا لها بما هو وارد في الساميات من ثنائيات مثل (حم ، مص ، مس) بالتشديد في العربية بما يقابلها في السريانية (خم ، مض ، مش) بدون تشديد للحرف الأخير (٢) .

الا ان الشيخ العلايلي يجعل الحرف المزيد على الثلاثي حلقة ثالثة في الدور الثالث من أدوار الانسان في تدرجه نحو الرشد ، فعرف الكتابة وعرف الحروف وتنوعت حاجاته ، فجعل الحرف الثالث حشوا في وسط الثنائيات — غالبا ليغطي مفاهيم جديدة ، فجعل من (قف) : (قطف ، فرف ، قذف) (٣) .

ولوفرة الشواهد والأمثلة في هذا الصدد ، « أطلق بعض الباحثين المعاصرين القول (٤) بأن الذي يتفرس كلم العربية بانعام نظر ، يجد أن معظم موادها أصلا يرجع اليه كثير من كلماته وان لم نقل كلها ، وذكر لذلك (فل) فانها تدور حول الشق والفتح : كفلح ، فتح ، فلح ، فلع ، فلى . وكذلك نجد ابن فارس في كتابه (المقاييس) يذكر ان مادة (قط) تدور حول القطع .

***

---

(١) فقة اللغة العربية د . نجا ، ص ٨٥ .

(٢) معجميات ص ٩٨ .

(٣) المقدمة ص ١٤٤ .

(٤) فقة اللغة العربية د . نجا ، ص ٨٥ .

ثنائيّة وثنائيّون

وهب مؤيدو « الثنائية » يدعمون أسسها ، ويرسون مبادئها ، ويسوقون شواهدها :

● فذهب بعضهم الى : « ان الطبيعة عينها ميالة الى الثنائية ، لا الى الآحادية ، لأن أعضاء النطق عينها لا تخرج للمتكلم حروفا صامتة متفرقة ، بل مقاطع مركبة من الصامتات تحركها الصائتات » (١) .

● ويرى بعضهم ان القول بأن اللغة الانسانية نشأت بطريق المحاكاة وهذا راى من آراء كثيرة قيلت فى نشأة اللغة — يرسى مبدأ هاما من مبادىء « الثنائية » اذ أن هذا الراى كشف عن عدد كثير من الأصوات اللغوية فى مجموعاتها . ولوحظ ان جل الألفاظ التى نشأت عن طريق المحاكاة هو وضع ثنائى . ولذا قال كثير من الباحثين : ان اصل حكاية الأصوات فى اللغات السامية — ومنها العربية — هو ثنائي يعتمد على حرفين صامتين ، حين حاكى الانسان أصوات الطبيعة وغيرها من حوله بصيحاته وصرخاته الانفعالية ، وعبر بعد ما قلد عن حاجياته الطبيعية والحياتية .

ويرى الأب مرمرجى أن البرهان الحسى الجلى على وجود الثنائية هو : « فى اصل اللغة » ، يستخرج من العناصر الأولية للغة العربية ، وهى أسماء الأصوات ودعاء الحيوانات ، أو زجرها ، وبعض أسماء الأفعال ، فهى ثنائية ، ومنها كان بدء صوغ الفعل المضاعف ومكرره . دونك الألفاظ التالية — على سبيل المثال لأن منها فى اللغة شىء كثار — : « اف » كلمة تكره وتضجر ، و « آه » كلمة توجع و « به » و « بخ » كلمتان تقالان عند استعظام الشىء و « عس » « كلمة زجر للهر » (٢) .

وليس هذا خاصا بالساميات ، بل لاحظ العلماء — أيضا — أن لفظ « مو » فى المصرية القديمة والصينية يعنى (هرة) ، وجاء التوافق من أن الهرة سميت بالصوت الذى تحدثه .

---

(١) معجميات عربية سامية ص ٩٨ .
(٢) معجميات عربية سامية ص ٩٩ .

(وسواء أكانت المحاكاة لصوت انسان : كالقهقهة ، والنحنحة ، والتأوه ، والتأفف) .

(أم كانت محاكاة لصوت حيوان : كالزقزقة ، والمواء ، والصهيل ، والزئير) .

(أم كانت محاكاة لصوت الطبيعة ويطلق عليها المحدثون نظرية (بو — وو) (Bow-waw) ، وذلك كحفيف الشجر ، وخرير الماء وصرير القلم وهزيم الرعد) ..

وليس (ماكس مولر Max Mueller) هو صاحب نظرية « المحاكاة» حين اشار اليها فى محاضرته بلندن سنة ١٨٦٤ واعطاها اسما جديدا تعرف به هو Ding-Dong)) كما اشار بعض المعاصرين (١) . بل ان علماءنا القدامى عرفوها ، واشار اليها ابن جنى (٣٩٢ هـ) وحكاها عمن سبقه ، ووصفها بالصلاحية والقبول ، حين قال : « ... وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات ، كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيح الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ، ومذهب متقبل » (٢) .

فابن جنى يحكى عمن سبق ، وفى حكايته هذه دلالة قاطعة على انه كان مذهبا مقررا وشائعا بين السابقين من علمائنا .

وارتضى الشدياق هذا الراى ، وذكر له امثلة كثيرة تعزز رايه ، فى كتابه القيم (٣) .

وايد ذلك المستشرق الفرنسى (رينان) فى كتابه : (التاريخ العام للغات السامية) ، وذكر امثلة كثيرة توضح التشابه بين الأصوات اللغوية فى مجموعتى اللغات الآرية والسامية (٤) .

---

(١) نظريات فى اللغة لأنيس فريحة ص ١٩ .
(٢) الخصائص ٤٦/١ .
(٣) سر الليال فى القلب والابدال ص ٢٢ — ٢٧
(٤) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢هـ

والقول في نشأة اللغة من أقدم المشاكل التي جابهت عقل الانسان ، لأنه أمر يثير الخيال .

والحق الذي يقال بصدده أن كل النظريات في القول بنشأة اللغة الانسانية الأولى ليست يقينية ، ولا يسلم بها العلم ، لأنها حدس وخيال ، ونحن ندربسها على أنها افتراضيات قيد البرهان ، وان فسرت كل نظرية قدرا من الألفاظ فسيبقى قدر لا تتناوله هذه النظريات ، والسر :

أن اللغة لم تبدأ — كما ذكرنا — منطقية ، اذ لم يكن هنالك منطق ولا فكر ، كما أن قضيتها ليست لغوية بحتة ، ولا تدخل في نطاق علم اللغـــة (Languis Tic) وحده ، بل تتشـــعب في نطاق (البســـــيكولوجيا) (والأنثروبولوجيا) ، والفلسفة .

فنظرية المحاكاة وان تعلق بها الثنائيون وفسرت جانبا ، فهي تعطيهم شيئا وسببا يؤيد وجهة نظرهم ، وعليهم سوق أدلة أخرى .

« ولكن يسجل لهم أن معظم الأصوات الثنائية كانت محاكاة لأصــوات الحيوان أو الطبيعة ، أو الأصوات التي تسمع عند مزاولة الانسان للاعمال التي تدل عليها الأصوات » (١) .

والنظرية تفسر ما يدل على المحسوس ويخرج عن دائرتها ما يــدل على المعقول .

● وتعلق بعض مؤيدي « الثنائية » الى أن (نشأة اللغة انما هي ثنائية المواد) اي أن قانون التطور يرشد الى أن اللغة نشأت أول أمرها ثنائية المواد ، يتركب كل منها من مقطع واحد مغلق (أي من حرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن) ، وحين دعت الحاجة الى التنوع والمزيد اكتنزت هذه المواد الى الثلاثية وما فوقها بالطرق السالفة وأن المعنى العام كامن في الأصل الثنائي ، وما زاد عليه لم يزد المعنى الا تنوعا حسب الحاجة والمقتضى .

وحفلت المقاييس اللغوية لابن فارس بالأمثلة الوفيرة التي تؤيد ذلك ، وحذا حذوه الشدياق في كتابه : « سر الليال في القلب والابدال » ، وللدكتور امين فاخر بحث قيم لدراسة معجمية احصائية ، في ثنائية الألفاظ في المعاجم

---

(١) المصدر السابق بنفسه .

العربية ، وعلاقتها بالأصول الثلاثية هو بمثابة التطبيق للنظرية التى نحن بصددها (١) .

ويذكر الدكتور محمد مصطفى رضوان ـ فى مقاله القيم عن الثنائية فى اللغـة (٢) طرفا من اقوال المستشرقين الذين يؤيدون « الثنائية » ، ويستشهدون لها بها فى إخوات السامية ، يقول :

لقد طبق المستشرق الالمانى (فورست) النظرية الثنائية تطبيقا عمليا فى معجمه الكبير الإنجليزى العبرى . مؤيدا نشأة اللغة ثنائية المواد ، من مقطع واحد مغلق اى من حرفين : اولهما متحرك حركته قصيرة ، وثانيهما ساكن .

ويقول المستشرق الالمانى (جزينس) فى كتاب له عن اللغات السامية ، وقد شرح فيه الثنائية شرحا وافيا مؤيدا بالأمثلة : « ان ثلاثية الأصـول اللغوية فى الفعل والاسم تلتزم بدقة واطراد فى اللغات السامية ... الى ان يقول : غير أن كثيرا من الأصول الثلاثية يمكن ردها الى اصول ثنائية ، نسميها : جذورا ، تفرعت منها جذوع ثلاثية وفوق الثلاثية .

والمستشرق الفرنسى (رينان) ، فى كتابه ـ التاريخ العام للغات ـ يزيد الأمر وضوحا فى هذا الصدد ، يقول : ان من بين الأصول الثلاثية انواعا من الأفعال ، تعد ثنائية ولا تعـد ثلاثية الا لاعتبارات صرفية ، تلك هى الأفعال المضعفة والمعتلة التى لا يكون فيها لتكرار الحرف الثانى ، أو لاضافة حرف العلة تأثير يذكر فى تغيير المعنى الأساسى الذى يفيده الأصل الثنائى ، وذلك نحو « نـد » فانه أصل ثنائى يفيد معنى الحركة أو الابتعاد ، سواء ضعف ثانيه ، فقيل : (ند) أو مد أوله فقيل : (ناد) أى تحرك أو تمايل من النعاس ، ومنه (تندد) الغصن ، أى تحرك ... أو مد ثانيه فقيل : (نداء) يقال : ندا الشىء ، بمعنى تفرق ، والابل النوادى ، هى الشوارد ...

وان الأفعال الثلاثية المركبة من حروف صحيحة تجد ـ فى جميـع

---

(١) انظر ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية : طبعة أولى
(٢) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ .

الحالات تقريبا — أن أحد احرفها الثلاثة أضعف من الآخرين ، وانه لايحدث في المعنى الأساسى الا تعديلا طفيفا (١) .

ومن ثم يبدو أن الأصل السامى الثلاثى يمكن رجعه فى الغالب الى حرفين أساسيين اضيف اليهما ثالث ليس له فى تغيير المعنى الأساسى الا تأثير طفيف ، وان الأصول الثنائية السامية هى العناصر البدائية التى لا تقبل النقص .

والقيمة التى تضيفها دراسة المستشرقين هى المامهم بلغات شقيقات للعربية ، وغيرها ، تبعد مدى الرؤية ، وتعلى من قيمة الشاهد ، وتقيم النظرية والتطبيق .

والأب مرمرجى يرى هذا الرأى ، وكثيرا ما ذكره فى مصنفاته ، ولخص فى احدها بعض مبادىء الثنائية ورأى أن من نتائج هذه النظرية : ان المثال والأجوف والناقص « ما هى سوى مزيدات او توسعات فى الرس الثنائى الذى يجرى فيه اول التوسع بتكرار الحرف الثانى منه ، أو بتشديده : اى بتكراره لفظا ووضع الشدة عليه كتابة ، وعادة يجرى التشديد فى اللغات السامية : اما لعذوبة اللفظ او تسهيله ، واما للمبالغة ، واما للتاكيد والتأييد » .

وعلى ذلك فالفعل (قام) مثلا ، اصله (قم) اشبعت حركة حرفه الأول ، مما يظهر فى السريانية فى كلمة (Iam) ولو تتبعت تصريف الفعل قام ، واتصاله بالضمائر ، لوجدت أن الأصل ثنائى وانه يدل على معنى تام فى حالة الثنائية (٢) .

ويؤكد الأب مرمرجى أن من الأدلة على وجود الثنائى فى أصل اللغات ولا سيما السامية منها : « هو أن المضاعف العربى الذى يقال : انه مركب من ثلاثة أحرف أصلية — لانجد مقابله فى السريانية الا بحرفين اثنين لا أكثر ، مثلا مقابل « حم » بالتشديد فى العربية نرى فى السريانية (حم) بالسكون ، وبازاء (مص ومص) (٣) .

---

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ
(٢) معجميات ص ٩٦ — ٩٨ بتصرف .
(٣) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ

● ويرى بعض العلماء أن الثنائية طبيعية التكوين ، بمعنى أن « طبيعة الحرفين اللذين تتكون منها المادة الثنائية لها دخل كبير فى بنائهـا على صورتها الثنائية ، اذ ان هذين الحرفين فى الغالب شديدان او رخوان او متوسطان بين الرخاوة والشدة .

ويرى كثير من علماء الفرنجة : ان المواد الأصلية المكونة من حروف شديدة هى على وجه العموم اقدم من المكونة من حروف رخوة او متوسطة ويرجح ان الأخيرة نشأت عن الأولى بتخفيف الحروف الشديدة (١) .

ويؤيد ذلك ما ذكره (الشهاب الخفاجى) من اعجمية الكلمات التى تجتمع فيها حروف معينة ، مثل (جردقة ، وجلنيق) لصوت باب وكذلك : (صنجة وصولجان) . وايضا : (نورج ونرجس) . وايضا : (مهندز وهندازة) . (وبست) اسم لبلدة (وسذاب وساذج) ، (وطاجن ، واصطبة) ... لأن الجيم والقاف ، والصاد والجيم ، والنون بعدها راء ، والزاى بعدها دال ، والباء والسين والتاء ، والسين والزاى ، والطاء والجيم والصاد والطاء لايجتمع شيء من هذه الحروف الا ودل على ان الكلمة معربة ، وان استعملها العرب .

ويعلق الدكتور محمد مصطفى رضوان على هذا بقوله : « لكن يبدو أن ترجيح اسبقية المواد المركبة من حروف شديدة على المركبة من حروف رخوة او متوسطة لا يستند الى دليل تاريخى .

ولعل الدافع لهذا الترجيح أن سنة التطور تقضى بالانتقال من الصعب الى السهل كما أن العقيدة الغالبة لدى العلماء أن الأصوات القوية هى التى لفتت نظر الانسان فى أول الأمر ، فحاكاها بحروف شديدة مثلها ، ثم حاكى الأصوات الخفيفة التى هى اقل من الأولى شأنا بحروف رخـوة او متوسطة » (٢) .

وهو باستدراكه على ما بدا به قد كفانا مئونة الرد ، والتعقيب . وبخاصة واللغة ــ كما اسلفنا ــ لم تنشأ منطقية ولا عقلية ، وتوحى سنة التطور والرقى بهذا التدرج .

---

(١) شفاء الغليل ص ٦ ، ٧

(٢) مجلة كلية الآداب .

وقفة مع الحرف الثالث :

● ووقف العلماء المؤيدون للثنائية طويلا عند طبيعة الحرف الذى يثلث المادة الثنائية .

وخلاصة رأيهم فيه : أن المعنى العلم للمادة الثنائية كامن وباق فيها مهما توسعنا فى المادة بالزيادة ، وكلما رددنا موادها المزيد الى الصورة الثنائية ، وجدنا الحرف الذى ثلث أصلها ما يبرج ذا قيمة تعبيرية ذاتية ، توجه المعنى الأصلى العام توجيها خاصا ، وتزيده تنوعا وتقييدا فقط .

وبعض علمائنا القدامى حذق الثنائية على هـذا النمط ، كالراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ) كما فى مؤلفه : « المفردات فى غريب القرآن » اذ اعتبر المضاعف هجاء واحدا ، ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، لأنه عنده من وضع الخيال ، لا من وضع العلم والتحقيق .

ورد ابن فارس ، فى « مجمل اللغة » باب (الجيم والذال وما يثلثهما) الى معنى الأصل ، كما فى جذر ، وجذع ، وجذل ، وجذم .. وان تفاوت الاستعمال نتيجة للحرف الثالث : فالأصل العام للشجرة جذل ، وللنخلة جذع ، وللحساب جذر ... .

وفارس الحلبة فى شرح هذا المبدأ هو العلامة أحمد فارس الشدياق (١٨٨٧ م) ، والمستشرق الألمانى (جزينس) ، وأجاد الدكتور محمد مصطفى رضوان فى عرض آرائهم عرضا يوضح أهم مبدأ من مبادىء وأسس الثنائية فى نظره .

ولابد لنا فى هذا المقام من تلخيص هذا المبدأ ، كما ورد فى (مجلة الآداب الليبية فى عددها الرابع عام ١٣٩٢هـ) زيادة فى الفائدة ، ولتتضح جوانب الحقيقة فى هذه المشكلة التى طال امدها ، واظهارا لبراعة الحس اللغوى للشدياق ، وكشفا لعديد من مؤلفات لغوية حديثة غمرت الأسواق ، تسوق فكر الشدياق وغيره ، وبضاعتهم دون أن تذكرهم أو تعزو اليهم علمهم وفضلهم وسبقهم :

فقد رأى العلامة (جزينس) ان تنمية المادة الثنائية ، يتم بواحدة من خمس طرق أولها : تضعيف الحرف الثانى ، وتلك وسيلة اولى وطبيعية فى

التنمية ، كما قال كثير من العرب والمستشرقين ووافقهم الشدياق ، وذكر ستة أسباب (١) للتدليل على صحة ما ذهب اليه ، نوجزها فيما يلى :

١ — ان معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت أو صفته ، وحكاية الصوت انما تأتى من المضاعف مثل : دب ، دق ، قر .

٢ — ان الفعل فى الأصل كالاسم : فى كونه يوقف عليه بالسكون قبل اتصاله بفاعله ، فاذا اتصل بفاعله فتح : فحين وضع الواضع (دق) لم يقصد بها فى أول الأمر ان تكون فعلا ولا اسما ، بل مجرد حكاية لصوت توهمه ، بقطع النظر اى شىء آخر ، فلما وصل (دق) بفاعله قال : دق الرجل . فلما اراد تخصيصه بأن يكون اسما قال : دق الرجل . وكثيرا ما نرى صيغة الاسم والفعل واحدة لهذا .

٣ — ان اللغة — كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية — لايحدث شىء منها تاما كاملا من اول وهلة ، ولكن على التدرج . فالأحرى أن نقول : ان الفعل السالم جاء آخر الأفعال أما الأجوف فانه غالبا ما يأتى عقب المضاعف ، مثل (طب) وطاب ، وصر وصار (أى صوت) . وأما الناقص فانه صدى غيره من الأفعال ، وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) لغة لبعض العرب . نحو : همروهمى ، والأسف والأسى (٢) .

٤ — ان حكم ترتيب المزيد المضاعف لا يكاد يتخلف : فقلما ترى للمضاعف معنى الا ورايت فى مزيده مثله أو ما يقاربه . والمراد بالمزيد هنامايكون الحرف الثالث فيه أو لامه غير عينه . وذكر لذلك أمثلة كثيرة تبلغ سبعة وخمسين ، منها : سل وسلب ، وكد وكدح ، ومن ومنح ..

٥ — ان زيادة حرف على المضاعف اليق بحكمة الواضع فى التفنن من نقصه ، اذ لو جعلت السالم أصلا لزم عنه العدول من الكمال الى النقصان ، والاختصار فى الأفعال ليس من مذهب العرب كما تدل على ذلك الأفعال المزيدة .

ودليل آخر : هو انهم يشبعون الفتحة فى آخر الفعل فيتولد منها الف ، كما فى : (دحب ودحبى ، وسلق وسلقى) .

---

(١) سر الليال فى القلب والابدال ص ٢٢ — ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩ ، وراجع أيضا معجميات عربية سامية ص ٩٦ — ٩٨ .

وقس على ذلك زيادة الهاء فى هجزع للجبان ، والنون ، فى ضيفن ، والراء فى بحتر وبعثر .

٦ ــ اننا نجد افعالا مجهولة الاصل وأصلها من المضاعف معلوم ، مثل : امتخر العظم ، اى استخرج مخه فهو لابد ان يكون من امتخ اذ لم يجىء المخر بمعنى المخ . وقس على ذلك تمخى العظم ، بمعنى تمخخه » .

ونخرج من ذلك بأن كل المضاعفات هى بالحقيقة ثنائيـــات ، والثنائى وارد حتى فى الساميات ، متصفا بمعنى حقيقى وتام كما سبق ان ذكرنا للأب مرمرجى .

ثانيها : اضافة حرف علة الى اول المادة او وســـطها او آخـــرها : ويعلل الشدياق الاضافة فى الأجوف بقوله :

ان الأجوف غالبا من يأتى عقب المضاعف ، كطب وطاب ، وضر وضار وجب وجاب ... وهو كثير فى العربية .

ويظهر ان السبب فى العدول عن المضاعف ، الى الأجوف ، هو الرغبة فى التخلص من تشديد عين الفعل بمد حركة فائه ، لأن التشديد ثقيل ، حتى لا يكاد يوجد فى اللغات الآرية .

وسبق أن علل الاضافة فى الناقص بأنه : صدى غيره من الافعال ، وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) لغة لبعض العرب ، كما فى شـــجب وشجا ومحق ومحا .

والتقارب شديد بين معنى المضاعف والناقص ، كما فى : قضى . وغمى الخبر وغم .

والتقارب أيضا شديد بين المضاعف والمثال ، كما فى : وقص (قطع) وقص . ووخز وخز .

ثالثها : اضافة حرف من حروف الزلاقة (١) ، الى المادة الثنائية : مثل : قص قصم ، قصر ، قصب ، قصف قصل ..

---

(١) حروف الزلاقة (اى الخفة) يجمعها قولك : (مر بنفل) .

رابعها : اضافة احد حروف الحلق (١) الى المادة الثنائية ، مثل : فق (فرق وفتح) وفقأ وفقع ، وفقح . ورد وردع . وقط وقطع . ومن ومنح .. فالمضاعف والحلقى معناهما واحد .

خامسها : اضافة حرف من احرف الصفير (٢) الى المادة الثنائية ، مثل فر ، وفرز ، وفرس ، وقرص ، وكلها بمعنى فصل وفرق وقطع . ومثلها : فل وفلذ ...

تلك هى الطرق الخمسة التى تثلث المادة الثنائية ، كما لاحظها علماء اللغة ، وكلها شاهدة بأنه لافرق بين المعنى العام للمادة الثنائية ، وبين المعنى بعد أن أضيف اليها ما يثلثها .

ويعرض علينا الدكتور رضوان — فى نهاية عرضه لآراء العلماء — مادة ثنائية حكائية ، مبينا المواد الثلاثية المشتقة منها بالطرق المختلفة ، وهى مادة (قع) ، مما يؤيد ان أصل الثنائية فى لغتنا مكين وثابت ، يقول :

ويظهر أن مادة (قع) فى الأصل حكاية لصوت الرعد المزعج ، ومنها القعقعة ، وتقعقع اى اضطرب .

والمواد المتفرعة عن هذه المادة تفيـــد معنى الخوف أو الانكماش أو الاسترخاء بصورة ما ، لما يترتب على سماع هذا الصوت من خوف .

فمن ذلك (قبع) القنفذ : ادخل راسه فى جلده ، باضافة حرف زلاقى فى الوسط ومثله (قنع قنوعا) أى تذلل .

وبابدال القاف كافا ينشأ : (كع) الرجل كعوعا ، أى جبن وضعف .

وباضافة الواو فى الأول ينشأ (وكع) البعير ، أى سقط ضعفا .

وباضافة حرف علة ، فى الوسط ينشأ (كاع) ، اذا هاب وجبن .

وباضافة حرف علة فى الآخر ينشأ (كعا) ، أى جبن . والأكعاء ، الجبناء .

---

(١) حروف الحلق يجمعها قول الناظم : همز فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء .

(٢) احرف الصفير : هى ، السين والزاى ، والصاد ، ويلحق بهـــا ما يقاربها .

ويقـــال : كبـــع ، أى ذل ، و (كنع) انقبض ، و (كنع) هرب ، وكتعت الابل : استرخت بطونها .

وبابدال الكاف خاء تنشأ المواد : (خنع) الصبى ، أى فحم وانهكه البكاء ...

(وخنع) السراب : اضمحل ، و (خرع) الرجل : ضعف ، ومثله : خشع خضع خنع ، ولخع الرجل أى استرخى جسمه .

وأن نظرة على الطرق التى مرت عليها المادة السالفة ، والمعنى العام الذى يرتبط بالثنائية بقوة ، يدعونا ان نقرر : أن عددا كبيرا من الأصول الثلاثية جاء تنمية لأصول ثنائية ، لاشك فى ذلك .

* * *

وجهات نظر في مسالك الثنائية

وقد بدت وجهات نظر حول بعض طرق « الثنائية » من المحدثين المؤيدين لها ، فأحدثت اعتراضات وجدلا :

● فأكثر الألفاظ الثنائية يرجع ـ عند الشيخ العلايلى ـ الى المعلات ، اذ يرى المعلات من بقايا العصور السحيقة ، ولذا لم تخضع للوضع النظامى ، فكانت وليدة فوضى الوضع القديم ، قبل الوضع الثابت ، وهى بذلك بداية فى دور النضج اللغوى كما جاء فى (مقدمته) .

ولذا فالشيخ يدعونا الى اتخاذ هذه المعلات المحفوظة فى المعاجم المختلفة عدة لفهم الثلاثى على وجهه الصحيح ، لأنه الأصل التاريخى الذى انفصل عنه ، يقول : « من الممكن جدا تعيين دلالات هذه الحروف ـ حروف الجدول الهجائى الذى سبق ذكره ـ بأصواتها حين كانت لغة ، على شىء من الافتراض المقلوب وسبيل هذا التعيين المعلات مطلقا ، وبالأخص منها اللفيف فى العربية ، سواء أكان لفيفا مقرونا أو مفروقا .

وليس اعتمادها بأخذ معانيها المعجمية على وجه التحديد ، وانما بأن ننتقل منها بالمقارنة الى ماهو الأدخل فى تفكير الساذجين واعتباراتهم »(١).

واذا لاحظنا العلاقة البينة بين المعتل والمضاعف ، والمضعف الرباعى والمهموز ، فى مثل :

(عبى ، عب ، عبعب ، عبأ) تأكد لنا ايضا صحة ما يراه الشيخ .

والدكتور عبد الصبور شاهين يرى أن « اعتبار المعتل ثنائيا اتجاه سليم من الناحية الصوتية » (٢) .

وحين قال الشيخ العلايلى باتخاذ المعلات المختلفة عدة لفهم الثلاثى على وجهه الصحيح أدخل فى اعتباره الثلاثى الصحيح أيضا فاضطره ذلك الى التكلف .

---

(١) المقدمة للشيخ العلايلى ص ١٣٠
(٢) فى التطور اللغوى ص ١٠٣

فحين تتأمل وجهته فى مادة (عبل) ، تجده جعلها متفرغة من (علا) المعتلة ، واصلها (عل) أما الباء فهى عين الكلمة مكنوفة بالفاء واللام ، كانهما سياج لها فسلمت من الحذف ، مع أنها الحرف المحشو المزيد ، وبذل الحرف المعتل للعوارض حتى حذف : فكان حرف الباء الصحيح المحشو تعويضا عن حرف العلة الساقط المحذوف . ولو أسقطنا حرف الباء المزيد قياسا على سقوط الحرف المعتل لاظهرت لنا الكلمة الثلاثية على صورتها الثنائية الحقيقية ، فاذا هى (عل) فقط .

فأى جامع يجمعها بعد هذا بهاتين المادتين الى الطريق الطبيعى ، لو أرجعنا (عبث) بحذف الباء وهو الحرف الوسط الى (عث) التى هى الثنائى المضعف والتى يكون معلتها (عثا) . . وعلى رسلها تعود (عبد) الى (عد) والتى يكون معلتها (عدا) .

ويعلق الدكتور ابراهيم نجا على طريقة الشيخ العلايلى هذه بقوله انها : « مبنية على التكلف لأن تطبيقها لا يتم الا بتجريد الحرف الوسط ، الذى هو الباء فى المثالين السابقين ثم تناول المادة وفيها المعلات التى وقع فيها الحرفان على ترتيبهما . مع أن تجريد مادة من حروف الوسط انما يكون بمنزلة الحذف والاسقاط لذلك الحرف المحشو ، فكيف يسلخ من بنية المادة جزء لا يتجزأ منها ، ثم تظل هذه المادة معبرة دونه عن غرضها تعبيرا كاملا » (١) .

أضف الى ذلك أنه سيترتب على قول الشيخ العلايلى هذا : « عكس ما ذهب اليه النحاة والصرفيون القدماء : من ان هذه الأفعال المعتلة ترجع فى الأصل الى بنية ثلاثية ، سواء أكانت معتلة العين أو اللام فكلمة (قام) من (قوم) ، وكلمة (باع) من (بيع) ، وكلمة (دعا) من (دعو) وكلمة (سعى) من (سعى) ، كما أن الفعل (وعد) ثلاثى لفظا وتقديرا ! » .

كما أننا نلاحظ « ما فى رأى الشيخ — العلايلى — من نظرة وصفية يختلف بها عن منطق النحاة التعليمى المعيار ، فقد أرادوا طرد أوزان الأفعال على وتيرة واحدة : توزن بميزان واحد هو (فعل) فحملوا المعتل على الصحيح ،

---

(١) فقه اللغة العربية — د . ابراهيم نجا — ص ٨٦

وبنوا مذهبهم على اساس (الخط العربى) الذى يشير الى الصوت الطويل برمز اصلى مستقل : دون الصوت القصير . كما يخلط بين صوتى الواو اللينة والمدية ، فيشير اليهما برمز واحد ، فى مثل (وعد ، ويقوم) ، وكذلك الياء فى مثل (يسر ، وقيل) ، فكل رمز فى الخط العربى يمثل عنصرا ذا اعتبار فى الاصالة او الزيادة » (١) .

ولكن يعذر الشيخ العلايلى — عندى — فى افتراض التصور ، لأن المرحلة قديمة ، وعز الدليل وندر الشاهد ، ولذا فلا مانع من أن نتجاوز عن الوهم القليل اذا ادى الى تصور مقبول يقوده خيال خصيب ، من عالم أريب ، وعقل واع حصيف .

ومن يطالع المقدمة للشيخ ، ويرى بصره بالعربية ، وثقافته المتنوعة ، يصدقه فيما يتصوره ويقتنع بما يقرره .

ومحاولته الفذة لوضع (معجم لغوى) بديع فائق ، تدل على اهليته لما يرى وتمكنه واقدامه ، وتشهد بصحة ما ذهبنا اليه فى براعته ، وتكفينا ادلته الاحتمالية لذلك .

* * *

● وللاستاذ جورجى زيدن ، وجهة نظر أخرى فى ارجاع الثلاثى الى ثنائى ، أثارت ايضا اعتراضا عند بعضهم :

ذلك أنه اعتبر الثنائى ، هو الأصل لجميع الكلمات ، كراى القائلين بذلك ، الا أنه انفرد بارجاع الثلاثى الى أصلين ثنائيين ، واخذ منهما على طريق النحت ، مثلا : (قطف) وهو مفيد للقطع وللجمع ترجع الى أصلين هما : (قط) المفيدة للقطع و (لف) وهو مفيد للقطع وللجمع ترجع الى المفيدة للجمع . فولدنا منهما بطريق النحت (قطف) المفيدة للمعنيين ، على طريق النحت باغفال اللام فى (لف) ونقل حركتها الى ما قبلها ، فصارت قطف .

وكذلك : (قمش) بمعنى جمع ما على الأرض من فتات ، ترجع لأصلين هما : (قم) بمعنى كنس ، و (قش) بمعنى جمع ، وتولد من (قم قش) تمش ، بطريق النحت ، بالغاء القاف الوسطى بطريق التخفيف (٢) . وتلك محاولة ووجهة نظر لا بأس بها .

---

(١) فى التطور اللغوى — ص ١٠٣

(٢) الفلسفة اللغوية ، لجورجى زيدان ص ٦٢ .

والنحت قديم ، عرفته العرب : فنحتوا الرباعى مثل : عبشم ، وبسمل ، ودمعز : من عبد شمس ، وبسم الله الرحمن الرحيم ، وأدام الله عزك .

كما نحتوا من الثلاثى (ضبط وضبر) ضبطر ، بمعنى الرجل الشديد ، وصلدم من (صلد ، وصدم) ... ففكرة النحت نجدها قديمة قدم لغتنا ، فهو مسبوق بها ، ولا شك .

وقرر ابن فارس فى معجم (المقاييس) : أن الرباعى والخماسى منحوتان دائما ، مثل : (بحثرى) بمعنى بدد ، مأخوذ من أصلين : (بحث) عن الشىء ، و (البثر) وهو ما يظهر على البدن .

ولكن جورجى زيدان جعل النحت فى الثلاثى والثنائى أيضا ، وذلك فضلا عن انه مجاف لوجهة نظر الأقدمين ، فانه أيضا لا يطرد فى مواد كثيرة ، فحكمه غير مبنى على استقراء واسع ، كما ذكر الدكتور ابراهيم نجا ، حين نقده بقوله :

« وما ذكره جورجى زيدان فى ارجاع الكلمة الى أصلين ثنائيين : ان كان لكل منهما معنى فى نفسه ، واذا لم يتحقق ذلك .. فلا يخلو الأمر من أن يكون لأحد الأصلين معنى فى نفسه أولا : فان كان الأصل الذى له المعنى فى نفسه هو الامر فعلا ، وكان الحرف المضاف الى ذلك الأصل زيد اعتباطا — وغالبا ما يكون أحد هذه الأحرف (ل . م . ن . ر) — وأضيف للمبالغة ، أو تنويع الفعل بما يطابق قصده ، نحو : فض ، رفض ، وهب ، لهب . واذا لم يكن لأحد الأصلين معنى فى نفسه بالا يكون اسما ولا فعلا ، فلا يخلو من ان يكون حرفا فى غالب الأمر ، وقد يكون اسما مفتقرا الى غيره ، أو كان فعلا فى الأصل ولم يعد مميزا الآن .

وتطبيقا على ذلك ، قالوا : ان كلمة (مال) بمعنى مقتضيات مركبة من (ما) الموصولة ولام الجر ، وحذف المجرور . وأصله : (مالى) اى الذى لى ، أو (مالك) اى الذى لك . وكذلك كلمة (ويل) اصلها (وى) ، و (لى) ، وبهذا الأسلوب رأى فريق من اللغويين : أن (ليس) مركبة من (لا) النافية ، و (أيس) الدالة على الكون المطلق فى بعض اللغات السامية . (١)

---

(١) فقه اللغة العربية ، دكتور نجا ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

وما رآه جورجي زيدان في هذا الصدد ، هو جزء من القضايا الخمس التي صدر بها كتابه . نذكرها لعلاقتها الوثيقة بما نحن بصدده وهي :

١ — أن الألفاظ المتقاربة لفظا ومعنى هي تنوعات لفظ واحد .

٢ — وأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في غيرها (يقصد الادوات) انما هي بقايا الفاظ ذات معنى في نفسها .

٣ — وأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها بالاستقراء الى أصول ثنائية تحاكي أصواتا طبيعية .

٤ — وأن جميع الألفاظ المطلقة ترد قابلة للرد (بالاستقراء) الى لفظ واحد أو بضعة الفاظ .

٥ — وأن ما يستعمل للدلالة المعنوية من الفاظ ، وضع أصلا للدلالة الحسية ، ثم حمل على المجاز لتشابه في الصور الذهنية » .

وهو يرمي من ذلك الى اثبات : « ان لغتنا مؤلفة أصلا من أصول محصورة عدا أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية ، التي ينطق بها الانسان غريزيا » (١) . وهو استنتاج مقبول .

واذا أسرف جورجي زيدان في القول بالنحت أي نحت الثلاثي من ثنائيين على رأى البعض فهو خير — في نظري — من الذين يردون النحت في لغتنا ، أو يقللون منه الى النذر اليسير والندرة :

فالأب مرمرجي لا يوافق على اتصاف الحروف المنفصلة بمعان خاصة طبيعية ، ولا بالأحادية ولا بالنحتية في العربية ، أي نحت الثلاثي من ثنائيين ، تبعا لزعم بعض الأقدمين بأن الرباعي منحوت من ثلاثيين (٢) .

والأستاذ انيس فريحة ، يرى أن « النحت قليل جدا في لغتنا ، مثل (ماهية ، ومال) يقول : والوهم أن تظن ان (حوقل) وأشباهها منحوتة ، وانما هي مختصرات العبارات وجمل ليست كتابا بالمعنى اللغوي . ويعترف

---

(١) الفلسفة اللغوية ص ٣٣

(٢) معجميات عربية سامية ص ١٠٣

بالنحت فى لغات اخرى ، ويمثل بكلمة (بيولوجيا)المأخوذة من (Bios) بمعنى الحياة ، و Logos بمعنى الكلمة أو العلم .

وكلمة (تلسكوب) المأخوذة من كلمتى Tele بمعنى البعد والمسافة و Scope اى مدى الرؤية .

ويضيف بأن الجذور العربية تأبى النحت ، لانك اذا حذفت حرفا من الحروف الاصلية افسدت المعنى .

واذا وفق بعضهم لنحت (برمائى) للحيوان الذى يعيش فى الماء واليابسة و (مدرحية) لتفسير التاريخ على اسس مادية وروحية . فليس معنى هذا اننا نستطيع أن نستفيد من هذه الخاصية اللغوية » (١) . هذا ارتآه الأستاذ انيس فريحة .

وليس بالراى ، كما سيجىء .

ووجهة نظر الأب مرمرجى الدومنكى (٢) فى رد النحت اننا اذا قلنا : « أن طائفة من الثلاثيات ممكن صدورها عن ثنائيين أو ثلاثة ، حسب اختلاف مداليلها ، فلا نعنى بذلك أنها مركبة من ثنائيين منحوتين ، بل انها نتيجة لزيادتين أو ثلاث : الواحدة جرت بالتتويج ، والثانية بالاقحام ، والأخيرة بالتذييل ، مثلا :

الثنائى (نه) ذيل بالراء ، فنجم عنه (نهر) : بمعنى الزجر .

والثنائى (هر) توج بالنون ، فصدر عنه (نهر) بمدلول جرى .

والثانى (نر) اقحم فيه الهاء ، فجاء منه (نهر) بنحوى أنار وأضاء .

وكذا القول فى الأضداد ، مثلا (طلع) يدل على الظهور والغياب ، فهو على راينا — ليس بمنحوت من (طل) و (طع) ، بل ان الثنائى (طل) ذيل بالعين ، فصدر عنه (طلع) بمعنى ظهر .

والثنائى (طع) أقحم فيه اللام ، فنجم عنه (طلع) بمدلول اطمأن ونزل والغياب ضرب من النزول والاطمئنان .

---

(١) نظريات فى اللغة ص ٧١ ، ٧٢

(٢) راجع المعجمية العربية فى ضوء الثنائية والالسنية السامية لمرمرجى ص ١٣٥ — ١٤١

فهو لا يرى النحت فى أمثـال هذه ، ولكن جاء الاكتناز تابعـا لاختلاف المداليل ، كما رأينا بزيادة الحروف .

ورأيى أن هذا القول على طلاوته ، يحرم العربية من منفذ من منافذ تنميتها الذاتية ، اذ ان النحت أو الاشتقاق الكبار ـ كما سماه بعضهم ـ صنو الاشتقاق بألوانه ، وهو باب عظيم فى تنمية اللغة ، و « ديناميكيتها » فى الزيادة والتوليد والنماء .

والقول بندرة النحت ، أو الغائه كلية من لغتنا قول فج ، لا يستند الى اساس علمى مدروس ، بل أعتبره ـ انا بعد بحث ودراسة ـ من خواص لغتنا وميزة لها فى الثروة اللغوية كطريق من طرق الاشتقاق ، كما سماه بعضهم بالاشتقاق (الكبار) . ولا تقتصر أمثلته على الستين أو السبعين لفظة ـ وهى مع ذلك ليست بالقليلة ـ التى وعتها بعض كتب الأدب واللغة ، بل هو أكثر من ذلك وأوسع ، لو عالجنا بابه معالجة فهم واستثمار . وقد وضع فيه الأستاذ (اسماعيل مظهر) رسالة قيمة ، حاول فيها جعل أسسه وطرقه معبدة وسلسة كأنها قواعد وجداول رياضية .

وليس هذا مجال الافاضة او الشرح فى هذا الجانب ، وانما سنفرده ببحث باذن الله .

ونقول : بأن محاولة الأستاذ جورجى زيدان ورأيه فى النحت ، اضاف على الأقل ـ سندا جديدا ، ورصيدا يضـاف الى أدلة وأسانيد « الثنائية » .

وحسبه ما ذكر من أمثلة واجتهاد توضح جانبا من جوانب الـرس والأصل اللغوى عند وضعه الأول ، أو عند اشتقاقه بعد ذلك .

* * *

● اما مزاول الثنائية والألسنية السامية : الأب مرمرجى الدومنكى ، فيسلك فى تثبيت دعائم الثنائية مسلك الاستشهاد والمقارنة بين أخوات العربية من السامية الأم ، لمعرفته للغات عديدة (١) .

---

(١) يرى الأب مرمرجى ـ والحق فيمـا آره ـ أن المشتغل باللغات =

فيطوف بالقارىء فى معانى المادة بين المعاجم العربية ، ويظهر اشتقاقها ومعانيها الحسية والمعنوية .. ثم يقارنها بمعانيها فى أخواتها السامية .

ثم ينسق ويعلل على كل ما سبق وذكره ، مبينا الرس الثنائى الذى تضمن الفكرة الأولية من المعانى التى وردت للمادة .

ثم يشير الى كيفية اشتقاق المعانى وقربها أو بعدها ، والحقيقى والمجازى منها .

ثم يأتى بأمثلة لما تلث المادة التى معه ، ويبين عليها كل المراحل التى سبق ذكرها ، منسقا ومعللا ، ويخلص من كل ذلك الى أن الجذر الثنائى واحد ، تدور حوله المعانى ، ومنه أخذت ، وعليه جاء الحرف الزائد .

فهو على سبيل المثال يذكر مادة (بر) بتشديد الراء ، ويرينا المعانى التى تؤخذ منها فى الاستعمالات والاشتقاقات ، كما جاء فى العربية واخواتها من السامية :

فمادة « بر » فى العربية بمعنى : الصدق ، والرحمة ، والطاعة ، والرواج ، والقبول ، والقهر ، والصلح ، والصلة ، والتزكية ، والمضىء ، والرفعة ، والكثرة ، والغلبة ، وركوب البر ، والملاطفة ، والطاعة ، والتحرج ، والانفراد ، واسم من أسماء الله الحسنى ، واليابسة ، ومقابل البحر ... ...

وفى « السريانية » بر (Bar) ومن معانيها : بر ، صدق ، سذج ، بله ، غبى ..

وفى « العبرية » (Barar) ومن معانيها : نظف ، قسم ، اختار ، صقل ، فحص .

وفى « الحبشية » (Barara) ومن معانيها : طهر ، صدق ، نفذ ، نزع ، سرق ...

= والمقارنات لابد وان يكون متضلعا فى لغتين أو أكثر ، مع معرفة فقهها وقواعدها ولهجاتها ، فضلا عن معرفة بعض الالسنة غير السامية التى لها علاقة بالعربية ، أو بغيرها من الاخوات السامية . وذكر أن مستسيما : (من علماء السامية) المانيا هو ( ) (١٦٢٤ ـ ١٧٠٤) كان اختصاصيا بارعا ، وكان يعرف خمسا وعشرين لغة .

وفى « الأكدية »(Bararu) ومن معانيها : أضاء ، لمع ، تلألأ ، فحص ، استفهم ...

وفى « الأمهرية » ، و « القطرية » جاء الثنائى (بـــر) بمفهوم (قط ، وقد) كمـــا فى المعجم الدثينى تأليف (Landberg) .

ثم يشير التنسيق والتعليل فيرى :

ان الفكرة الأولية الحسية المتضمنة فى الثنائى (بز) كما فى مجانســـه (فر) هى فكرة : الشق ، والقطع ، والفصل ، والابعاد ، وهى كامنة أو ظاهرة فى بقية المعانى على اختلافها فى العربية وأخواتها ؛ فمن القطع نظافة وصقل ، واختيار وفحص ، والفارغ منفصل عن غيره مما كان يملؤه ، والتافه فارغ من المحتوى الطيب ، والبلاهة حرمان من العقل . ومن النقاء المادى ينتقل الى النقاء الأدبى والروحى فى الفضائل ... وفى مزيد المادة واشـــتقاقاتها ، يرجع المعانى الأخرى الى الفكرة الأولى : فالبر (القمح) ســـمى بذلك لانفصاله عن تبنه .. والقمر يلمع على الدنيـــا نتيجة الصقل ، والصـــقل مكمل لعمـــل التنظيف والتنقية ...

وبمناسبة ذكر (فر) مقابل (بر) ذكر الأب مرمرجى : أن كلمة (فوريم) فى الأكدية (الأشورية والبابلية) بمعنى السهم ، أو القطعة من الأرض ، ويجوز أن يكون مشتقا من الرس الثنائى السامى ، وهو (فر ، أو بر) (١) .

وعلى نسق ما جاء فى (بر) والفكرة الأولية التى تضمنتها ، تأتى معانى المواد المكتنزة فى : (برأ) فى العربية ، و (Bra) فى السريانية ، و (Bara) فى العبرية ، و (Baru) فى الاكدية ، و (هبرا) فى الفينيقية ، ، و (برا) فى السبئية .

ومثل (برا) المواد : (برح) و (برد) (٢) .

وبعد دراسة ومقارنة الاحصاءات والمراجع المتنوعة ، وفى شبه قياس منطقى يرى الأب مرمرجى : وفرة الاصول والرساس العربية ، وتفوقها عددا على اصول ورساس بقية الألسن السامية ، بل ولعلها أوفر ثروة من

---

(١) معجميات : عربية سامية ص ١٤ ـــ ٣٤ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ص ١٤٤

لغات العالم أجمع . وهذا قول يحتاج الى مؤازرة واستعانة ودراسة بالحاسب الالكترونى ، لتبيان الحقيقة .

كما يرى أن الأصول الموسومة بالثلاثية والرباعية المجردة ، هى بالحقيقية توسعات اشتقاقية لرساس الثنائية ، التى بها بدات نشأة اللغة ، وعنها صدرت جميع المشتقات على تضارب انواعها :

فالرباعى — مع ما يدعيه الصرفيون من مجردتيها الرباعية — ترجع بسهولة الى ثلاثيات ، فهى — اذن — ثلاثية مزيدة (١) .

اضف الى ذلك ان الثلاثيات المجردة الشاملة : (المثال ، والأجوف ، والناقص ، والمهموز ، والمضاعف ومكرره) هى بأجمعها قابلة لارد ايضا الى « الرس الثنائى » فيجدر — من ثم — طرحها من مجموع الأصول الثلاثية ، فيبقى السالم وحده ، وهو كذلك هين رد اغلبيته الى الثنائى ، مع استمرار المناسبة المعنوية بينهما ، كما هى باقية بين الثلاثى والرباعى ، وبين الثلاثى ومزيداته .

اما البقية الباقية البائن تعذر ردها من الثلاثى الى الثنائى ، فذلك يمكن عزوه الى ضياع الرساس الثنائية ، أو فقدان فحاويها الأولية ، مثلما ضاعت ، أو لم ترد الأصول الثلاثية لبعض المزايدات ، أو المشتقات التى بلغ عددها الثمانمئة أو أكثر ، كما جاء فى الاحصائيات . فالرد الى « الرس الثنائى » هو الأصل عند الأب مرمرجى ، واذا لم يتمكن من ذلك يعزوه الى الفقد والضياع ، كما ضاعت تصاريف بعض الأفعال فى مثل (يدع ، يذر ، عسى ، ليس) ، أو أن الخفاء جاء من خفاء المعنى الأصلى لسبب من اسباب الضياع والفقد .

ويرى طريق توسع الثنائيات — كما أسلفنا — بتكرار الحرف الثانى ، أو بالتكرار والمد معا ، أو بزيادة التاء فى الآخر ، أو بالثلاثة مجتمعة .. وكل التوسعات المختلفة متضمنة منطوق « الرس الثنائى » المشتقة منه ، وقد أحصى منها ثلاثمائة وسبعة وعشرين رسا (٢) .

---

(١) راجع : هل العربية منطقية لمرمرجى ص ١٤٥ — ١٥٠

(٢) معجميات عربية سامية ص ٧٢ — ٨٠ بتصرف .

وعلى هذا النمط الذكى الواعى فى الضبط والتخريج ، يرد الأب مرمرجى المواد الكثيرة التى تناولها بالشرح والتاصيل ، الى رسها « الثنائى » ويشير الى معانيها التى تنوع اكتنازها ، وينبه على أصلها الذى تنتسب اليه فى فروع السامية ، وأماكن تعاورها فى الاستعمال مما يدل على ذكاء والمعية ، مكنه منهما ثقافته الواسعة والواعية .

وفى عجالة نسرد بعض امثلة لمواد اشار الى رسها الثنائى (١) :

مادة (بلد والبلدة) بمعنى اقام ، من بلد ، أو لبد (بالقلب) مشتق من الثنائى « لب » . ومادة « لحن » من الثنائى (حن) .

ومادة (ملك والملاك) أصله (مل) بمعنى تكلم ، من باب الاطلاق ، وتوسع المعنى فوصل الكلام من باب التقيد .

اما مادة (ملك والملاك) بتخفيف (ملأك) من لأك او الك ، ومنه الوكة وملأكة بمعنى رسول ورسالة فاصله الثنائى (أل) . بمعنى : أسرع .

ومادة (ادب) من دأب على سبيل القلب ، وأصله الثنائى (دب)

ومادة (الشعر) من الرس الثنائى (شع) اذا برز ، وانتشر ، وتفرق ، واضاء .

ومادة (وثب) بمعنى قفز وقعد — على الضد — من (ثب) . ومادة (ساعور) بمعنى النار ، من (سع) دعاء للمعزى وتحريض لها للاقبال ، وتوسع فيه فى تسعير النار .

و (الأب) اصل سامى ، من الثنائى (أب) مأخوذة من ميل الطبيعة للانبات والايلاد . ومبدله (أم) — بين الباء والميم — وكلاهما يدل على الاندفاع الى الافراع فى المواليد . و (حواريون) من (حر أو حار) اذا تحرك وسار .

و (الكاهن والكهنوت) من (كه) وكهكه اذا تنفس . و (هيمن) عبرية من (من) والمنة ، اى القوة . و (الفاروق) سامية ، للذى يفصل بين الأمور ، وايضا الشديد الفزع ، من (فق) الدال على الانفراج والانفتاح .

---

(١) راجع معجميات عربية سامية .

هذه أمثلة سقناها ، لمزاول الثنائية ، تدل على سعة أفقه فيما ينادى به ، وتمكنه فيما ارتآه . ومن شاء مزيدا ، فليراجع — ان شاء — تآليفه العديدة فى هذا الجانب .

* * *

● ومع أن علماءنا العرب القدامى ، ومعاجمنا العربية لم تنص صراحة على القول بالأصول الثنائية كنظرية ، الا أن صنيعها فى التطبيق يشير الى ذلك ضمنا ، اذ تبين من تتبع كلامهم — كما أسلفنا — ومن النظر فى معاجمنا الاصيلة — وجود علاقة بين فحوى المعنى العام للاصول الثنائية ، وبين الثلاثى المتفرع عن هذه الأصول ، مما يدل على أن « الثنائية » ترددت فى أذهانهم كنظرية ، ولمسناها فى أقوالهم ومعاجمهم كتطبيق ..

وقد جمع الدكتور أمين فاخر بتتبع وجهد فائق أمثلة كثيرة لذلك فى كتابه : (ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية ، وعلاقتها بالاصول الثنائية) فى دراسة معجمية احصائية ، تؤكد ما ذهبنا اليه .

وهذه أمثلة قليلة تمثل غيضا من فيض ، مما جاء فى كتبهم وقواميسهم :

فمادة (عم) أصل ثنائى يدل على العلو والارتفاع . وفى « العين » للخليل بن أحمد : العميم : الطويل من النبات ، وبه قال ابن فارس (١) والجوهرى (٢) .

وفى الأصول الثلاثية لهذه المادة نجد المعنى :

ففى (عمد) بالدال رجل عمدان وعمدانى أى طويل قال أبو عبيدة : عمدت الشىء أقمته فهو معمود ، وقال تعالى : « **ارم ذات العماد** » (٣) أى الطول ، وجاء عند الجوهرى (٤) وابن فارس (٥) ما يؤيد ذلك .

وفى (عمر) بالراء ما يدل على العلو والارتفاع ، كما جاء فى الجمهرة (٦) .

---

(١) المقاييس ١٥/٤
(٢) الصحاح ١٦٣/٢
(٣) الفجر : ٧
(٤) الصحاح ١٥٦/٢
(٥) المقاييس ١٣٩/٤
(٦) الجمهرة ٣٨٧/٤

وعمرك الله : دعاء بطول العمر . والعومرة : الصياح ، ومنه الاهلال بالعمرة كما ذكر ابن فارس (١) والمعتمر ايضا : المعتم على راسه .

وفى (عمق) بالقاف ، معنى الطول أحيانا : فقد ذكر ابن فارس (٢) عن ابى الأعرابى : العمق اذا كان صفة للطريق فهو البعد . واذا كان صفة للبئر فهو طول جرابها .

وفى مادة (فص) بالفاء والصاد ، ما يدل على الفصل بين شيئين ، كما ذكر ابن فارس (٣) .

والفصوص : مفاصل العظام ، قال أبو عبيدة : الا الأصابع . وفص الجرح : سال . وقال : الجوهرى : فص الأمر : مفصله .. ومعنى الفصل هذا موجود فى ثلاثى هذه المادة :

ففى (فصح) بالحاء ، معنى الانفصال ، يقال : فصح اللبن اذا أخذت عنه الرغوة ، كما ذكر الجوهرى (٤) .

وفى (فصد) بالدال ، معنى الانفصال ، يقال : فصد العرق والناقة ، اذا قطع العرق ، فخرج دمه ، كما ذكره ابن دريد وغيره (٥) .

وفى (فصع) بالعين ، معنى خروج شىء عن شىء أيضا (٦) : وقال الجوهرى (٧) : فصعته من كذا تفصيعا ، أى أخرجته فانفصع .

وفى (فصل) باللام ، وضوح معنى الفصل ، كما فى سائر المعاجم ، ومنه الفصيل اذا انفصل عن الناقة ومفاصل العظام .

وفى (فصم) بالميم ، وضوح معنى الفصل ، كما فى سائر المعاجم ، فصم الشىء كسره من غير أن يبين وقال تعالى : « **لا انفصام لها** » (٨) .

---

(١) المقاييس ٤/١٤١
(٢) المقاييس ١/١١٤
(٣) المقاييس ٤/٤٤٠
(٤) الصحاح ٢/٢٤٤
(٥) الجمهرة ٢/٢٧٣
(٦) المقاييس ٤/٥٠٧
(٧) الصحاح ٢/٢٤٤
(٨) البقرة : ٢٥٦

وفى (فصى) بحرف العلة ، دلالة على الانفصال أيضا ، يقال : فصيت الشىء أفصيه فصيا ، اذ أبنته منه ، كما ذكر ابن دريد (١) . وقال الجوهرى (٢) تفصى الانسان اذا تخلص من الضيق والبلية ، وتفصيت من الديون اذا تخلصت منها ، وقال الجوهرى أيضا : افصم المطر : اى اقلع (٣) . وافصى المطر ، أى أقلع (٤) .

ومن العلماء من لم يرتض القول « بالثنائية » ، وراح يعترض على القائلين بها ، ولكل وجهة هو موليها .

* * *

---

(١) الجمهرة ٨٤/٣

(٢) الصحاح ٢٤٧/٢

(٣) الصحاح و (فصم)

(٤) الصحاح : (فصى)

نظرية الثلاثية

وجدنا مؤيـدى نظرية « الثنائية » يرون أن المواد اللغوية نشأت أول أمرها ثنائية ، يتركب كل منها من مقطع واحد مغلق : أي من حرفين أولهما متحرك ، حركته قصيرة ، وثانيهما ساكن .

وان سنة التطور والنمو كانت هى العامل الفعال فى اكتناز المـادة الثنائية وجعلها مركبة من ثلاثة احـرف فأكثر .

وكثير من المتقدمين والمحدثين من علمائنا العرب ومن غيرهم ، قـال بذلك ، وأشارت كتبهم اليه فى ابحاثهم ، وان لم ينصوا عليه صراحة .

وقد عاصرت نظرية الثنائية نظرية الثلاثية ، وناوأتها فترة طويلة ، وكان لها أنصارها ومؤيدوها من العلماء العرب وغيرهم قديما وحديثا . وعلماء الصرف والنحو قديمـا من المؤيدين لهـا ، يقولون : بأن أقل الأبنية ثلاثة : حرف يبدأ به ، وحرف يوقف عليه وحرف يكون واسطة بين المبدوء به والموقوف عليه ، لتنافى أحكامها .

بل وذهب بعضهم الى أن صيغة الكلمة مطلقا ـ فى الساميات عموما ـ ثلاثية ، وذلك هو القياس فى الاشتقاق ، ابتداء من البابلية القديمـة حتى اللغات الحية الآن ..

وعلى أساس ذلك كان عمل اللغويين واعتباراتهم فى أصول الجذر الثلاثى للغة ، وقياس ما وجد وما يجد من مفردات اللغة . وهذا تعميم لا يجوز علميـا ، الا اذا ثبت عـلى أسس منهجية .

واضطرهم ذلك الى عـد الثنائى ثلاثيا ، ليوافق ميزانهم (فعـل) ويقبل التصريف على مذهبهم ، ولو كان متكلفا . يقول الخليل : « وقـد تجيء أسماء لفظها على حرفين ، وتمامها ومعناها على ثلاثة أحرف ، مثل (يد) ، وانما ذهب الثالث لعلة أنها جاءت سواكن وخلفها السـكون ، مثل : (بأيد) فى آخر الكلمة ، فلما جاء التنوين ساكنا اجتمع ساكنان ، فثبت التنوين لأنه اعراب ، وذهب الحرف الساكن فاذا أردت معرفتهـا فاطلبها فى الجمع والتصغير ، كقولهم : (أيديهم ، ويديه) (١)

---

(١) العين ، للخليل بن أحمد ـ تحقيق د . عبد الله درويش ص ٥٥ .

وتعسف النحاة فى اعتبار كل ثنائى ثلاثى الأصل سقط ثالثه لعلة. حتى صار عندهم قاعدة ، مع ان العلة لا علاقة لها بأصل البناء ، بل بالوظيفة النحوية داخل العبارة . فالقول بأن الثنائى جاء وفق صيغة قياسية ، ثابتة ، وأنه أصيب بعلة ذهبت بعجزه ، أمر أقرب الى الصناعة منه الى السليقة والطبيعة اللغوية .

ولكن ظلت القاعدة مرعية يتوارثها الخلف عن السلف ، يقول ابن مالك :

وليس أدنى من ثلاثى يرى قابل تصرف لما قد غير وعلى كل لعل القول بالثلاثية تأثر كما تأثر تقعيد النحو فى العربية بالمنطق الصورى الاغريقى .

فضلا عن ان العقل لا يقر القول بالثلاثية ، الا اذا بلغ الأمر مرحلة نضج وتفلسف ، واحتياج لتنويع وتصنيف يواكب ما جد وما يجد ، لأن اللغة ظاهرة ترافق المجتمع فى نشوئه ونموه وتطوره ، ولم تصنع مسبقا وفق مقاييس موضوعة ، بل العكس هو الصحيح .

كما أن الثلاثية وما فوقها تمثل مرحلة حضارية فى معانى مفرداتها ، والانتقال من مرحلة العفوية فى الوضع الى القصد والتفكير فيه .

وذكر بعضهم : أن الثلاثى اكثر وأخف ، بل وافصح من غيره :

يقول ابن جنى : « ان الأصول ثلاثة : ثلاثى ، ورباعى ، وخماسى . فأكثرها استعمالا ، واعدلها تركيبا ، هو الثلاثى . وذلك لأنه حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به وحرف يوقف عليه .

وليس اعتدال الثلاثى لقلة حروفه فحسب ، ولو كان كذلك لكان الثنائى اكثر منه اعتدالا ، لانه اقل حروفا ، وليس كذلك :

الا ترى أن ما جاء من ذوات الحرفين جزء لاقدر له فيما جاء من ذوات الثلاثة ، واقل منه ما جاء على حرف واحد . فتمكن الثلاثى اذن انما هو لقلة حروفه ، ولشىء آخر : وهو حجز الحشو الذى هو عينه بين فائه ولامه ، وذلك لتباينهما وتعادى حاليهما :

الا ترى ان المبتدأ به لا يكون الا متحركا ، وأن الموقوف عليه لا يكون الا ساكنا . فلما تنافرت حالاهما وسطوا العين حاجزا بينهما ، لئلا يفجأوا

الحس بضـــد ما كان آخذا فيه ، ومنصبا اليه ، فقد وضح بذلك خفـــة الثلاثى » (١) .

فابن جنى يعتـــد بالكثرة فى استعمال الثلاثى وصوره ، مع أننـــا نعده ثنائيا نوعه الحرف الثالث .

وكلامه عن اعتدال تركيب الثلاثى يشبه كلام الفلاســــفة ، وتفكير المناطقة ، واللغة قامت اول ما قامت بعيدة عن العقل والمنطق ، تساير سذاجة البدائيين واعتباراتهم .

ولسنا نرى تعاديا بين متحرك وساكن . وحسبنا أن ابن جنى أشار الى الثنائى والأحادى .

والدكتور محمد حلمى موسى فى كتابه : (احصاء جذور الصـــحاح بالكومبيوتر) ذكر : أن الجذور الثلاثية جاءت فى العربية بنسبة ٨٥ر٣٧٪ الى جميع الجذور التى تبلغ ٥٦٣٩ جـــذرا . والجذور الرباعية جاءت بنسبة ١٣ر٥٨٤ ٪ الى جميع الجذور وجاءت الجـــذور الخماسية بنسبة ٦٧٤ر٪ . وجاءت الجذور الثنائية بنسبة ٣٧ر٪ الى كل الجذور » . وسنعقب على ذلك بعد قليل ، بكثرة الثنائى .

ولعل قلة الثنائى فى نظر القدامى والمحدثين ترجع الى عد الثنائى بدون تضعيف للحـــرف الثـــانى ، مع أن مضاعفات الثنائى فى العربية يقابلها فى الساميات الثنائى بدون تضعيف : اى أن كل المضاعفات فى العربية هى بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى وارد فى كل الساميات متصـــفا بمعنى حقيقى وتام . وقد ورد بهذه الطريقة كثيرا من الثنائيات كما ذكر الأب مرمرجى الدومنكى . (٢)

والمجمع اللغـــوى المصرى يعتبر الأخْ لغـــة فى الأخ ، واصله : اخو ، فحذفت الـــواو ، اى أن الثنائى المضـــعف فيه لغتـــان : التضـــــعيف وغيره . فاذا ساوينا الثنائى المضعف بما اصله ثلاثى ، فأولى أن تكون المساواة فيمـــا لم يظهر فيه أصل ثلاثى .

---

(١) الخصائص ١/٥٥ .

(٢) المعجم الوسيط (جـ ١) أ خ ـــ اخو ، والمعجمية للاب مرمرجى .

وحكى السيوطي فى المزهر قول بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح بأن : « الثلاثى أحسن من الثنائى والخماسى ... وأن من شروط الفصاحة توسط الكلمة بين قلة الحروف وكثرتها ، والمتوسطة ثلاثة أحرف ». وهذا كلام فى الجمال ، ونحن فى الكمال قبل الجمال .

وعلى كل لم تسلم هذه النظرية (الثلاثية) من النقد والأخذ والرد ، وتطرقت اليها المغامز والاحتمالات ، حتى من بين مؤيديها ، والقائلين بها ، وهاك طرفا من ذلك :

قالوا : ان نظام الصرف العربى هو نظام صوتى بالدرجة الأولى ، وان اخطأ القدماء فربطوا بينه وبين الشكل الكتابى ، وقد تسنح لنا فرصة .. لتقديم بعض شواهد هذا الخلط ، بين الظواهر المتباعدة ، داخل نظام علمى ملفق ، قام على احكامه ذكاء القدماء ، وقلدتهم فيه الأجيال حتى يومنا هذا .. » (١) .

ومعنى هذا أنه لابد من اعادة النظر فى قواعد العربية ، وفق نظريات علم اللغة الحديثة . اذ مع احترامنا لعلمائنا القدامى ، والقول بفضلهم وسبقهم ، الا أن قلة امكاناتهم وقتذاك ، وما جد الآن من تقنيات ، جعل مسافة الخلف فى الأصوات واسعة .

ومن علمائنا من يرى ـ بعد عرض النظريتين ـ أن نساير « وجهة نظر القائلين بأن أصول الألفاظ ثلاثة ، كما هو موجود فى الاستعمال فعلا :

لأن مرحلة الاشتراك فى الحرفين مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيها مجديا الا ضمن بحث تاريخى .

ولأن الأمثلة التى ذكرها « الثنائيون » لا تكفى لاثبات نظريتهم على استقراء واسع .

ولأنه لابد من اشتراك الساميات كلها ـ كأخوات للعربية ـ فى بحث واسع عن تلك المرحلة التاريخية ...

ثم يذكر : أن البحث فى ظاهرة الثنائية لم يجىء عفو الخاطر ، بل

---

(١) فى التطور اللغوى د . عبد الصبور شاهين ، ص ٢٠ .

لابد وان فى العربية من اسرارها وروابطها ، ما هو جدير بالبحث والتحرى والامعان .. ويدعو المهتمين باللغة الى متابعة البحث ، للوصول الى الرأى القاطع فى المشكلة . » (١)

وهو بذلك يساند الثلاثية كواقع كثير فعلى ، ويشير اليها كحدث وقع فى مرحلة تاريخية ، يعوزه البحث الواسع العميق ، والمقارنة الواجبة الواعية . وكان الأولى — فى نظرنا اعتبار الثنائية من مدخرات النشأة الأولى للغة ، الدال على قدم تاريخها ، ومدى التطور الذى اصابها ، والنمو الذى بلغته كما انه يدعو الى دراسة الساميات وهذا ما ندعو اليه ونرحب به .

وبعضهم يرى أن الأمر وان انحدر فى أصول العربية من الثنائية انه يعترف بواقع الثلاثية الآن ، يقول : « ومن استعراض حقل المفاهيم العربية نجد ان هذه — امثلة الثنائية — وان جاءت من حرفين أصليين خصهما بمعنى واضح حرف ثالث — تتألف الآن من ثلاثة حروف صامتة ، تؤدى بتجمعها فكرة عامة .

ولئن عرفت العربية عبر تاريخها الحافل مفاهيم تعود الى اصول غير ثلاثية ، تعدل ما هو غير ثلاثى ، وتدخله فى صميم التركيب العربى : اى تنطلق معظم الكلمات العربية من مرتكز بنيانى أساسى ، هو الأصل الثلاثى » (٢) .

فهو يشير الى الثنائى ، ويعترف بالثلاثى لكثرة استعماله ، وكان أولى به أن يشير الى أن الثنائية من هذا المنطلق : من مدخرات النشأة الأولى للغة ، أى عهد ما قبل القياس ، قبل أن تستقيم على قياس وقواعد .

لا أن يحكم بأن الثنائية تشكل مرحلة تاريخية من مراحل التطور ، وتحولت الى أصول ثلاثية ، بفعل تحولات داخلية بحتة ، كالمد والتضعيف والزيادة .

* * *

---

(١) فقه اللغة العربية د . ابراهيم نجا ، ص ٨٨ ، ٧٩ .
(٢) الألسنية العربية ، للاستاذ ريمون طحان ، ص ٨٦ .

ونجد من أيد « الثلاثية » من المستشرقين ، يشير الى احتمالات تؤيد « الثنائية » فى اللغات السامية ـ بعامة ـ اكثر من الثلاثية :

يقول العلامة الالمانى (جزينس) :

ان ثلاثية الأصول اللغوية فى الفعل والاسم تلتزم بدقة واطراد فى اللغات السامية ، ادرجة أن االغة فى بعض الحالات تصطنع طرائق معينة للاحتفاظ بثلاثية الأصول ذات المقطعين ، ولو بصفة ظاهرة ، كما فى : (عدة وثقة) وكما فى الأسماء الستة العربية .

غير أن كثيرا من الأصول الثلاثية يمكن ردها الى أصول ثنائية ، نسميها جذورا ، تفرعت منها جذوع ثلاثية وفوق الثلاثية . (١)

وفى نفس الاتجاه ، يقول العلامة ، (رينان) الفرنسى :

« ان من بين الأصول الثلاثية أنواعا من الأفعال ، تعد ثنائية ولا تعد ثلاثية ، الا لاعتبارات صرفية ، تلك هى الأفعال المضعفة والمعتلة التى لا يكون فيها لتكرار الحرف الثانى ، أو لاضافة حرف العلة تأثير يذكر فى تغيير المعنى الأساسى الذى يفيده الأصل « الثنائى » ، ومثل لذلك بمادة : (ند) وناد ، وتندد ، وندأ ، بمعنى تمايل وتفرق ..

ثم يعود (رينان) فيقول : « وان الأفعال الثلاثية المركبة من حروف صحيحة ، نجد فى جميع الحالات تقريبا أن احد أحرفها الثلاثية أضعف من الآخرين ، وانه لا يحدث فى المعنى الأساسى الا تعديلا طفيفا » (٢) .

فهو يعد من الأفعال الثلاثية افعالا ثنائية الأصل ، وان كانت ثلاثية الصورة لاعتبارات صرفية ، ويجعل أحد الأحرف الثلاثية ضعيفا ، ولو كان صحيحا .

وهذه ظاهرة تستوقف النظر وتواكب ما ارتآه الشيخ العلايلى حين جعل (عبل) من (علا) المعتلة ، واصلها (عل) (٣) .

---

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ج ٤ ص ٣٠٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٩ .
(٣) فقه اللغة العربية للدكتور نجا ، ص ٨٦ .

ونجد من الباحثين من يضع مفردات العربية فى نظام رياضى ، قوامه الهيكل الثلاثى ، وكانه بذلك يضعنا امام الأمر الواقع ، فيرى : ان العربية لغة الاحرف التى تخضع فى وضع مفرداتها لنظام رياضى متكامل ، يتألف الهيكل عادة من ثلاثة حروف صامتة ، ترتبط به ، أو تتجمع حروفه لتؤدى فكرة عامة حسية قد تعمل بها عوامل التجريد ، والتصعيد ، والتعميم ، والتخصيص ، والانتقال بالمعنى (Mu Tation) ويتخذ الهيكل الأصلى أجسادا واشكالا وصيغا تعود رغم تنوع معناها الى الفكرة الأساسية المشتركة » .

والطريف ان النظام الرياضى المتكامل — الذى اعتقده — جعله يقدم على احصائيات عددية ، نظن أن لغتنا لا تتحملة عمليا ، يقول :

« ويمكن احصاء المفردات العربية التى تتألف من صوت واحد بالطريقة التالية : تتألف اصوات اللغة العربية الصامتة من ٢٩ حرفا — باعتبار الهمزة — تدخل عليها الحركات الخفيفة والممدودة ، (اى الفتح والضم والكسر ، فى حالتى الحركتين : الخفيفة والممدودة) فيكون ما يتألف من حرف واحد هو ٢٩ × ٦ = ١٧٤ مثل : (فم = فا ، فى ، فو ، ذا ، ذو ، ذى ... وبعض حروف العطف ، والاستفهام ، والجر ، والقسم ، والندبة ، والنداء .

وبعض الضمائر المتصلة المرفوعة ، والمنصوبة ، والمجرورة .

وفى (أمر) اللفيف المفروق ، مثل : ق ، ف ، ش ... من : وقى ، وفى ، وشى . واشبع العرب وهن الصوت المنهوك بهاء السكت ، فقالوا : قه ، وفه ، وشه (١) .

ويذكر أن العربية اعتمدت فى وضع مفردات تتألف من حرفين صامتين ، تضاف اليهما الحركات الخفيفة والثقيلة ، ويتم ذلك نظريا بالعملية الحسابية التالية : ٢٩ حرفا ، أو ٢٨ (باسقاط الهمزة التى تتلاشى احيانا فى حركات المد) فتكون ٢٨ × ٢٧ = ٧٥٦ ، ولا نجد عمليا فى العربية الا عشرات من الكلمات فقط ، وردت فى بعض كتب اللغة ، مثل (أب، أم ، أخ ، أخت ، حم ، دم ، يد ، بن ، بنت اسم ، شفة ، رئة ...)وقد

---

(١) الألسنة العربية ، للاستاذ ريمون طحان ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

الخقت ببعض هذه الثنائيات أحرف أضافية ثلثت لفظها ، وأدخلتها فى الشكل العربى السائد والشائع » (١) .

ولأنه يرى أن معظم الكلمات فى العربية ينشأ عن أصول ثلاثية (ثلاثة حروف صامتة وغير مصوتة) ، هى حجر الزاوية فى اقامة صرح التنظيم الرياضى اللغوى المتكامل ، يقول : ان الثلاثى هو الذى يؤدى الى اكتناز العربية ، ويحدث ذلك نظريا على الشكل التالى :

٢٨ × ٢٧ × ٢٦ (باهمال تنوع حركات الأصول الثلاثية) ينتج ١٩٦٥٦ ويذكر أن العربية قد تكتفى بعدد صغير من الجذور (٣٠٠٠ تقريبا) يتم بموجبها وضع معظم الكلمات العربية » .

وبالتنظيم الرياضى اللغوى ، يرى أننا لو استثمرنا الأصول الرباعية ، لأفضى الأمر الى لغة رمزية ، تفوق فيها وسائل التعبير المفاهيم التى قد يستوعبها الفكر البشرى ، اذ ينشأ عن الاستثمار : ٢٨ × ٢٧ × ٢٦ × ٢٥ = ٤٩١٤٠٠ ويضاف الى هذا العدد المربع من الجذور مشتقات الرباعى (٢) .

فالاستاذ (ريمون) يشير الى أن اللغة العربية قد تكتفى بعدد صغير من الجذور ، يمكن أن تكون (٣٠٠٠) ، وفى ذلك رد على من يدعى أن الاحصاء اللغوى للثنائيات فى لغتنا أقل من أن تفى بحاجة الانسان ، وبخاصة اذا رددنا كثيرا من أصول الثلاثيات الى ثنائيات ، وأيضا اذا اسعفنا قدر من جذور الرباعى الرياضى اللغوي .

أما أحصائياته اللغوية بعامة فان لغتنا ــ عمليا ــ لا تتحملها ، لأن اللغة ــ أى لغة ــ تنشأ طبيعية متدرجة ، تلاحق المضامين الاجتماعية التى سبق المداليل اللغوية ، قلة وكثرة وضيقا وسعة ، تبعا للتطور والحضارة ، يقول الأب مرمرجي :

« اللغة تابعة السنة الطبيعية :

فهي خاصية لأحوال الانسان المختلفة ، ولأعضاء نطقه ، وللتطورات الاجتماعية وغيرها من المؤثرات .

---

(١) المصدر السابق ص ٧٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٦ ، ٨٨ .

وهى فى بعض أجزائها : قياسية ، منتظمة ، محكمة . وفى البعض الآخر : سماعية لا ضابط ولا قيد لها .

وقواعدها ليست قواعد حسابية رياضية .

ولا هى شبه الكتب المعدة للطبع التى تنضد حروفها ، وتضغط صحائفها بالآلة الطابعة ، فيمكن الطباع أن يستخرج منها عددا من النسخ غير المحصاة ، واحدتها ضهية أختها ، دون اختلاف » (١) .

وهذا الكلام بما نحن فيه أليق وأنسب ، ويتمشى مع طبيعة اللغة التى قدمنا انها لم تكن فى أول أمرهـا منطقية ، لأنها حينئذ لم تعرف المنطق ، ولكنها واكبت الطبيعة والحياة فى تدرجها ، سنة الحياة والأحياء .

* * *

---

(١) معجميات غربية سامية ص ٢٠٨ .

الثنائية فى الميزان

القائلون بنظرية « الثنائية » منطقيون ، ولم يبدأوا من فراغ ، ولم يكونوا أسارى الوهم والخداع ، كما لم يدفعهم التحرض والجراة على قول ما قالوا ، وما أثير فى وجههم من اعتراضات لم تثبت عند التنفيذ :

● فقد استنتج (جورجى زيدان) : أن لغتنا مؤلفة أصلا من أصول محصورة عدا ، أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية التى ينطق بها اللسان غرزيا . وبنى استنتاجه على مرتكزين يؤيدهما الواقع ، وتسندهما الشواهد ويخدمان قضية الثنائية ، وهما — كما أسلفنا —

أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى غيرها — ويقصد بها الأدوات — انما هى بقايا ألفاظ ذات معنى فى نفسها .

وأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى نفسها يرد معظمها بالاستقراء الى أصول ثنائية تحاكى أصواتا طبيعية ، وتضم الأسماء والأفعال وما يشتق منها .

وحين قرر ذلك جورجى زيدان ، لاحظ أن الألفاظ المتحدة تتقارب لفظا عند اشتراكها فى حرفين ، هما : حامل المعنى الأصلى ، ثم يأتى الحرف الثالث — على الجذور الثنائية التى هى حوامل المعانى — لتنويع المادة اللغوية ، وتطوير الاستعمال الدلالى فقط ، عن طريق الاشتقاق الكبير ، والأكبر ، والكبار (النحت) .

وهو بتقريره ليس بدعا بين اللغويين ، فقد أشار الى ذلك : الخليل ابن أحمد ، وسيبويه ، والفارسي ، وابن جنى ، وابن فارس ..

ووصف بعضهم هذا الاتجاه بالمغالاة ، وأحلام اليقظة والتخيلات . يقول الدكتور أنيس : « لقد غالى ابن جنى فى هذا ، ومعه الثعالبى صاحب (فقه اللغة) : اذ جعلا مجرد الاشتراك فى أصلين فقط من الأصول الثلاثية دليلا على الاشتراك فى عام لبعض الكلمات ، فيقرر : أن المعنى العام (للتفرقة) يكون بصوتى (الفاء والراء) ، والمعنى العام (للقطع) يكون (بالقاف والطاء)

الى غير ذلك من تخيلات وتأملات تشبه أحلام اليقظة ، عند رجل ، اشتد ولعه واعجابه باللغة العربية ، فيتصور فيها ما ليس منها ، واضفى عليها من مظاهر السحر ما لا يصح فى الأذهان ولا تتصف به لغات من لغات البشر » (١) .

وفى قول الدكتور انيس الغاء سريع للمسألة برمتها ، واهمال لما قرره الأقدمون فى هذا الصدد ، وما حوته بطون المعاجم وقبله العقل وايده الاستعمال ، والتذوق الراقى .

ومن يطلع على البحث التطبيقى عن : (ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية وعلاقتها بالأصول الثلاثية) ، ويتابع ما بداه بتأن وروية ، يجد صدق وثبات وصحة ما قرره السلف من علمائنا .

والشيخ العلايلى يمتدح جورجى زيدان بأنه : تنبه الى أن الثلاثى متفرع عن ثنائى سابق لا فى الاشتقاق فقط ، كما فهمه الأقدمون حين ذهبوا يطبقونه فى الأبدال وتعاقب الحروف ، بل فى النشوء اللغوى أيضا .

ويضيف الشيخ العلايلى : باننا اذا حاولنا انصافا ، فلم تكن أفكاره فى فحواها بأكثر من أفكار كتاب « العين » التى بثها الخليل بن أحمد ، وأرسلها ارسالا (٢) .

ولذا يدعونا الدكتور عبد الصبور شاهين ، الى أن نحسن تتبع آراء الأقدمين فى مظانها ، وأن نستقصى بصورة كاملة مذاهبهم ، ليتم تحقيق التكامل بين آرائنا وآراء الأقدمين . (٣) وهى دعوة حرية بالمسارعة بالقبول لخدمة لغة الضاد .

* * *

● ويتفق اصل الوضع اللغوى عند العلماء القائلين بالثنائية ، مع الواقع والطبيعة فى تدرج الأشياء :

---

(١) من اسرار اللغة ، ص ٦٧

(٢) مقدمة العلايلى ص ١٣٦ .

(٣) فى التطور اللغوى ص ٩٠ .

فقد نطق الانسان أولا مقاطع واحدة ، أو (هجاء واحدا) — كما يرى الأب انستاس الكرملي — أي بناء مكونا من صامت ومصوت (سواء أكان المصوت فتحة أم كسرة أم ضمة) وربما اتبعه بصامت ، فتتكون الصورة المقطعية ، وهي بذلك في اجمالها اشارة الى مصطلح الهجاء الواحد ، وتلك نظرة تساير الواقع ، ولا تختلف نظرة الأب مرمرجي عن هذه النظريـة الا بمصطلح شكلي ، هو الثنائية ، لأن الكلمات بين يديه تتكون من رمزين مكتوبين ، بصرف النظر عما بها من مصوتات هي في الحقيقة عناصر صوتية اساسية .

ورأينا كيف جعل الشيخ العلايلي أدوار اللغة متدرجة شبه طبيعية تترقى في ادوارها بترقي الانسان ومتطلبات حاجياته . فسلك الانسان لذلك سلوك « الاحادية » ، ثم « الثنائية » في اختراع اللغة ، ثم كان اكتنازها بعدئذ لتكون اكثر خصوبة واسخى عطاء ، فتتمكن من العطاء الواسع ، والوفاء بما تتطلبه الحياة والأحياء .

فكان الدور الأول ، للمقطع الأحادي البسيط للانسان البدائي .

والثاني المقطعين ، حين ترقى الانسان بعض الشيء ، فحاكى أصوات الطبيعة .

وكان الدور الثالث للجمع بين الدورين السابقين ، فألف منهما دلالة مركبة ، تفي بتغطية متطلباته والمداليل الاجتماعية التي تدرجت في خمس حلقات طالت حتى بلغ الانسان رقيه ، والحضارة ذروتها .

وذلك لأن : « طريقة الاشتقاق والتوسع في الساميات قائمة على الارتقاء من الأقل والأنقص الى الأكثر والاكمل ، اي حسب السنة الطبيعية : سنة الرقي ، وليس بالعكس الا من باب الاختزال وهو نادر ، ولا يحدثه في طور التكوين والنشوء ، بل في عصر الكهولة والهرم ... والعلاقـة الأساسية الثابت — غالبا — وجودها بين المشتق والمشتق منه هي اللحمة المعنوية ، مع توسع الدلالة وتطورها : بالانتقال من حيز المعاني المادية الحسية ، الى حيز المداليل المجردة والمجازية ، ثم العقلية والروحية » .

هذا بعض ما قاله الأب مرمرجي تأييدا لسنة الترقي الطبيعية في اللغة ، شأن أي شيء يتدرج ولا بأس به من طريق — معقول — لتوسع اللغة ، وتكثير مفرداتها ، لتغطية الأحداث والمتطلبات حقيقة وعقلا وخيالا ، وكمالا وجمالا .

* * *

والأب مرمرجي يؤكد ، ويصر — في موضوعية وخبرة — على أن الزيادة — التي تمت بها التوسيعات — لم تكن اعتباطا ولا عشوائية ، : « دون ضبط الحرف المطلوب ، ودون تخصيص الدور القائم به في ميدان الزيادة » ، وبملاحظة : انه « في طور التكون اللغوي تبدأ الزيادة بالحروف عن طريق السماع دون القياس ، فتنشأ بضرب من الفوضى ، ثم تسير رويدا رويدا في سبيل التكامل والاستقرار ، فمنها ما يبلغ درجة القاعدة والقياس المطلق أو النسبي ، ومنها ما يتخلف فيبقى دون نظام ... وقد تجرى هذه الزيادة بالحروف ، بعض الأحيان لمقاصد تلوح متضاربة ، لا بل متضادة : » كياء المضارعة التي تستعمل « للغائب ، والمثنى ، وللجمع : المذكر والمؤنث ... والتاء التي تدل على المخاطب المذكر والمؤنث ، وعلى المثنى والجمع المذكر والمؤنث » .

وهذا ما ذكره الأب مرمرجي ردا على اعتراض (J.A.D,M.) في مجلة (Arientlia) الصادرة في رومة (١) بأن الزيادة التي تذكر تتويجا أو اقحاما أو تذليلا — انما هي اعتباطية وغير منضبطة .

وهذا الرد منطقي يتمشى مع طبيعة اللغة واقعا ، وتاريخا محفوظا يؤيده السماع والقياس والاستعمال ، وبخاصة في فترة التدرج وعدم الاستقرار اللغوي التام .

يقول الشيخ العلايلي :

ان العطاء الواسع والاحكام اللغوي ، انما حصل حين صار الثلاثي وحدة الكلمة ، فتوسع بالاشتقاق والتصريف ، أما حين كانت الاضافة للبناء ، كانت الاضافة الثنائي ، وعلى ذلك :

فقد كانت الزيادة للبناء ، وهي ما تضاف للثنائي ، لصوغ الثلاثي ، وموضعها الوسط .

وحين كانت للاشتقاق ، وتضاف الى الثلاثي لتحصيل الرباعي وغيره ، وموضعها الآخر .

وحين كانت للتصريف ، كتفعل واستفعل ... كان موضعها الأول غالبا .

وواقع اللغة يثبت ما قاله الشيخ العلايلي في البناء والاشتقاق والزيادة ، والعربي يملك لغته وهي شغله الشاغل ، تترقى معه ، وينميها حين تضطره الحاجة بوعي وسهولة ، والحاجة أم الاختراع والتطوير .

* * *

---

(١) جزء ١ ، مجلد ١٩ ص ٢٠٧

من ميزات الثنائية

● **اصحاب نظرية الثنائية ، يحلون المشاكل اللغوية ، دونما عناء ولا تعسف :**

من المسلم فى أصول اللغة ، أن هناك مناسبة بين اللفظ والمعنى تظهر للمتأمل الحصيف .

وأن المادة تدور حول معنى واحد ، مثل : حدق ، واحدق ، والحديقة . بمعنى الاحاطة .

وان معانى البناء الواحد تتلاقى مهما اختلفت أوضاع حروفه ، مثل : ركب ، وكرب ، وبرك ، وربك ، وبكر ، وكبر .. بمعنى عظم واشتد واجهد .

وأن الألفاظ تتقارب لتقارب المعانى : مثـل : أز ، وهز .. بمعنى التحريك . وقد تنشأ مشاكل من اختلاف دلالة الثلاثى أحيانا ، مثل : (نهر)، التى وردت فى جميع الساميات عدا الحبشية ، بمعنى : (الجرى أو السيلان، وبمعنى : الزجر فى العربية ، وبمعنى النور والضياء) .

فالمعانى كما تبدو متباعدة ، لا يربطها رابط . وهنا تختلف النظرة لحل المشاكل :

فالحل من منطلق أصحاب نظرية « الثلاثية » يدخل فى نطاق الفرض والتخمين والاحتمال .

فقد أشاد بعض العلماء (١) ، بمحاولة الأستاذ الدكتور ابراهيم أنيس (٢) حين لخص العوامل التى تسبب تغير المعنى عند تعدد دلالات اللفظ ، فهى :

قد تكون بسبب الانتقال من الحقيقة الى المجاز .

أو بسبب سوء فهم المعنى ، كما يحدث للاطفال احيانـا فى البيئات المنعزلة .

---

(١) فى التطور اللغوى ، للدكتور عبد الصبور شاهين ص ١٢١ — ١٢٣ بتصرف .

(٢) فى اللهجات العربية ص ١٩٩ وما بعدها .

او بسبب استعارة اللغة لكلمة تماثل صورة لكلمة فيها ، مثل استعارة « البرج » بمعنى الحصن من (اليونانية) على حين أن مادة (برج) تفيد فى العربية : التزين او صفة خاصة فى العين .

أو بسبب نسيان معنى الكلمة الأصلى القديم ، ثم استعمالها فى معنى جديد بمرور الزمن ، مثل : (الهجرس) بمعنى (القرد) فى الحجاز ، وبمعنى (الثعلب) عند بنى تميم .

أو بسبب تطور الصورة الصوتية فى لفظة ، حتى توافقت مع صورة صوتية أخرى ذات معنى مستقل ، كدلالة (التغب) بالتاء ، على معنيين هما : الوسخ والدرن ، والقحط والجوع . ويظهر أن دلالتها الأصلية هى (الوسخ والدرن) أما دلالتها على (الجوع) فناشئة عن تطور لفظة (السغب) فى بعض البيئات التى تقلب السين تاء ، كما يقول بعض أهل اليمن (النات) بدلا من (الناس) ، ثم جاء جامعو اللغة ونسبوا معنيين مختلفين لكلمة (التغب) وعدوها من المشترك اللفظى » . ويرى الدكتورانيس بأن المعاجم فيها الكثير من ذلك .

أما أصحاب « الثنائية » فهم يرون : أن الثلاثى (نهر) ليس أصلا لهذه المعانى على نسق واخذ ، بل كل واحد منها آت من مصدر خاص به ، وما الثلاثى الا بمثابة الحوض الذى تصب فيه مياه منبجسة من ثلاثة ينابيع ، فتتلاقى فيه ، فينشأ من ذلك لفظ واحد ذو ثلاثة معان » .

وعلى حسب معرفة موقع الحرف الذى ثلث المادة « الثنائية » — تتويجا ، أو اقحاما أو تذليلا — نجد المعنى المناسب ، لأن المادة الثلاثية صادرة نسبة الى كل معنى من معانيها عن ثنائى خاص ، بينه وبين الثلاثى المشتق منه صلة معنوية ثابتة » كما يقرر الأب مرمرجى (١) ، مثلا :

الثنائى : (نه) ذيل بالراء ، فنجم عنه (نهر) بمعنى الزجر ، وقد وردت صورة الثنائى فى المضاعف (نهنه) .

(والثنائى : (هر) توج بالنون ... فصدر عنه (نهر) ، بمعنى الجرى أو السيلان ويشهد له (هرهر) لصوت الماء الكثير .

---

(١) المعجمية ص ١٣٥ — ١٤١ ، ومعجميات عربية ص ٢٠٠

(والثنائي : (نر) أقحم فيه الهاء ، فجاء منه (نهر) بفحوى أنار وأضاء . وجاء من الثلاثي الأجوف (نار) بمعنى أضاء ، ومنه لفظ (إلنار) للاشتعال ، و (النور) وهو الضياء) .

واين هذا مما ذكره الدكتور أنيس من احتمالات وتقديرات وتأويلات ؟

وقس على هذا النمط في الأضداد (طلع) بمعنى ظهر وغاب ، من الثنائي (طل) وذيل بالعين ، فصدر عنه طلع بمعنى ظهر . والثنائي (طع) اقحم فيه اللام ، فنجم عنه طلع ، بمدلول اطمأن ونزل ، وهو منحوت من (طل) و (طع) على طريقة (جورجي زيدان) ، وان كان لا يرتضي هذه الطريقة الأب مرمرجي .

قس على ذلك أيضا (أمر) من (أم) و (حمر وخمر) من (حم وخم) ... (١) .

وتلك طريقة فيها من السهولة ما حل المشكل ، وارضى الباحث ، واوصله الى راحة في خط يتسم بالدقة والطرافة ، وتعززه الشواهد .

● معتل الأفعال في العربية والساميات عموما ثنائي لا ثلاثي ، وبخاصة في حالته الأولى :

فقد امتد خلاف العلماء في ثنائية الأفعال المعتلة ، من العربية الى أخواتها في السامية على نحو ما يروى عن (الأب هنري فليش) في دراسته للنحو السامي : فالبعض يفترض ثنائيتها منذ بدايتها ، وآخرون يقرون أنها نشأت ثلاثية .

ويقول المستشرق (ف . ر . بلاك ان الموقف الأول — ونحن معه في ذلك — طبيعي ، لأن المصوت الطويل في الأفعال التي يكون الصامت الثاني من أصلها واوا أو ياء ، انما يأتي من اطالة المصوت القصير الداخلي في الثنائي (قل Qala) فتصير (قال Qaala وكذلك قل Qila) تصير (قيل Qiila و (يقل Yalqolo) تصير (يقول Yalqoolo) . وبهذا دخلت في نظام الفعل الثلاثي .

بينما يؤيد الأب (هنري فليش) انها كانت منذ البدائية ثلاثية ، اذ

---

(١) المصدر السابق .

يلاحظ هذا الوضع الثلاثى لها فى الجفرية والتجرية من اللغات الحبشسية ، ولأن المصوتات الطويلة انما هى نتيجة القلب أو الحذف » (١) .

ولكن اذا علمنا :

أن (الأب فليش) يقرر أن فى العربية وفى أخواتها الساميات أصولا ثنائية .

وأن المستشرق (رينان الفرنسى) يقول — كما ذكرنا من قبل — بثنائية المعتل من الأفعال ، لأن اضافة حرف العلة ليس له تأثير يذكر فى تغيير المعنى الأساسى الذى يفيده الأصل الثنائى ، بل ويمتد عدم التأثير السابق الى الفعل الصحيح غالبا ، لأن أحد حروفه أضعف من الآخرين .

واذا تذكرنا أن الشيخ العلايلى قال : ان المعتل من بقايا العهود السحيقة ، وانها اثرية وجدت قبل انتظام الوضع اللغوى ، وأن اعتبار المعتل ثنائى هو اتجاه سليم من الناحية الصوتية ، كما جاء فى (التطور اللغوى) .

اذا اعتبرنا ما سبق أمكننا أن نقرر وجهة نظر القائلين بأن معتل الأفعال — ولا سيما معتل العين — وضع ثنائى ، فى واقعه واستعماله ، وفى حالته الأولى .. فالمعتل ثنائى الحق بالثلاثيات وهو ثنائى لفظا ، وان بدا ثلاثيا خطا فى العربية .

أما حين تشير بعض تصاريف الكلمة الى الثلاثية ، فنبادر بالقول : بأن ذلك طريق من طرق اكتناز البنية « الثنائية » — كما أسلفنا — فى العربية .

* * *

والمضعف أصله ثنائى ، ولم يبد ثلاثيا الا فى الصورة ، ولم تكن ثنائية خداع :

فتضعيف الحرف — كما قلنا — طريق من طرق الاكتناز ، وصورة المضعف كان فى الأصل ثنائى المقطع ، نظرا الى الصورة الملفوظ بها ، دون التفات الى الحرف المكرر بمثابة حرفين :

يقول ابن دريد : « والثنائى الصحيح لا يكون حرفين البتة الا والثانى

---

(١) العربية الفصحى ص ٢٥٠

ثقيل (اى مضعف) حتى يصير على ثلاثة أحرف : اللفظ ثنائى ، والمعنى ثلاثى ... » (١) .

ويعلق الدكتور ابراهيم نجا ، على ذلك بقوله :

« واعتبار المضعف الثلاثى من باب الثنائى ليس غريبا عن علماء اللغة قديما وحديثا ، خاصة وأنهم ينظرون الى اللغات السامية بمنظار واحد — كما فعل الأب مرمرجى — فقد عقد موازنات بين المضعف الثلاثى فى العربية، وبين ما يقابله فى السريانية ، فتبين أنه لا يقابله فى السريانية الا حرفان ، مثل (مص) بتشديد الصاد ، فيقابلها فى السريانية (مص) باسكان الصاد ... » (٢) .

ولكن الدكتور رمضان عبد التواب ، يرى أن الأب مرمرجى ، قد « خدعه ما آل اليه المضعف الثلاثى فى بعض اللغات السامية ، بعد أن سكنت اواخر كلماتها ، لسقوط الحركات الاعرابية وغيرها ، فضاع التضعيف منها وصارت على حرفين ، فظن هذا هو الأصل فيها ... ونسى الأب مرمرجى : أنه عند اسناد المضاعف الى الضمائر فى العبرية والسريانية ، يظهر التضعيف » (٣) .

واقول : ان الأمر ليس فيه خداع : فالثنائية باقية للمادة وان ضعفت ، كما أن المضعف لا يفقد ثنائيته اذا ارتد الى معتل العين ، مثل : (كاع ، ذام ، زير ، مير) من (كع ، ذم ، زر ، مر) . (٤) .

فالتضعيف حقق للكلمة العربية الانتقال من الثنائية الى الثلاثية فى اواخر الدور الثانى فى رأى الشيخ العلايلى .

يضاف الى ذلك أن الثلاثى حين تفرع عن ثنائى سابق ، انما كان ذلك فى النشوء اللغوى قبل أن يكون فى الاشتقاق فقط . فاذا احتفظت وحفلت قواميسنا العربية — وفى مقدمتها معجم مقاييس اللغة لابن فارس — بالتضعيف ، وبدا الثنائى فى صورة الثلاثى ، فان مرد ذلك الى الانتقال من مرحلة الى أخرى .

***

---

(١) معجم الجمهرة ، لابن دريد ١/١٣

(٢) فقه اللغة العربية ، د . نجا ، ص ٨٤ ، ٨٥

(٣) فصول فى فقه اللغة ص ٢٦٦

(٤) مقدمة العلايلى ص ١٣٢

الثنائى كثير

الثنائى ليس بالقليل فى العربية : كان الاحادية فى التعبير كافية فى المرحلة الأولى لانسان لا يرتفع عن النوع وليس له من مطالب حياته المعيشية سوى الضروريات التى يحتاج للتعبير عنها .

وحين دعته الحاجة للتعبير سلك طريق الثنائية ، وذلك أمر مسلم به فى اختراع اللغة وتدرج الأشياء ، وله آثار فى كل لغة انسانية احتفظت بأصولها القديمة السحيقة . واذا بدت قليلة فهى — عند البدائيين — كافية .

وقد اتى من الأسماء والأدوات والحروف تنشىء الكثير ايضا ، مثل : اب ، اخ ، حم ، ابن ، يد ، دم ، شفة ، لثة ، رئة ... ومثل : كم ، وما (الموصولة) ... ومثل : لو ، لا ، بل ، ما (النافية) ..

واذا اعتبرنا الثلاثى وما فوقه مخصبا من الثنائية ، كان عدد الأصول الثنائية كثيرا ويقرر الدكتور محمود حجازى : أن أكثر الكلمات الثنائية : « قد تطورت فى اتجاه الثلاثى لاحداث ضرب من التوازن ، لكى تصبح مماثلة لأكثر الكلمات العربية ، وهى الكلمات الثلاثية » (١) . فمنها ثنائى ، ومنها ثلاثى ، ولعل فى هذا ضرب من التوازن على هذا الراى .

وليست نشأة اللغة فى اوليتها منطقية ، حتى تخضع للتقدير الكمى ، وقياس (الكومبيوتر) ، حتى تقبل بعض موادها ، ويرفض البعض الآخر ، اذ لم يكن هناك منطق ولا قياس ، وانما هناك تعبير يواكب فى تدرجه وتطوره تطور الكائن الحى الذى ينطق . فالقدر الضئيل من الثنائى — فى نظر بعض الباحثين المعاصرين — كان كافيا فى الفهم والافهام والتعبير والتغطية والاشباع والامتناع فى اعتبارات السذج وقتذاك .

فالثنائية ليست قليلة ، باعتبار معايشتها لفترة الانسان البدائى ، بل تذكر المعاجم طائفة كبيرة من المفردات ذات الصوتين الصحيحين ، من

---

(١) علم اللغة العربية ص ٢٠٦

الأسماء ، مثل (عم ، فم ، هم ، دم ...) ، ومثل : (مال ، قال ، دعا ، سعى ...) من الأفعال .

وأيضا وجود طائفة اكبر من بنات الصحيحين المضعفة الثانى ، نحو : (أب ، أد ، مج ، حج ، مد ، شد ، هد ، من ، كف ، نم ...) وهى كلها ثنائيات جرى عليها بعض التغيير الصوتى عند الاسناد أو الاضافة ، لأسباب صوتية محضة .

وهناك بحث حديث قيم ، اثبت أن ما كتب بالخط المسمارى ، منذ اربعة آلاف سنة ، قبل الميلاد ، دلل على وجود صلات لغوية بينه — ما كتب بالخط المسمارى — وبين لغات الجزيرة الحية ، ولا سيما العربية .

وان اللغة الأكدية (السامية) أول وأقدم لغة مدونة بقواعدها .. يغلب عليها البناء (الثنائى) المقطعى للكلمة ، ويعد هذا البناء الصورة الأولى لتشكيل الوحدات الدالة على المعانى ، والتى تكون الجذر أو النواة التى تدل على المعنى المطلق فى الأصل ، ثم تتطور من حيث الشكل بالتغيير الحركى الداخلى ، أو بالاضافة اليها ، لتدل على معان جديدة ، تشترك مع الوحدة الأولى فى المعنى الكلى ، وتتميز عنها . بمعنى جزئى خاص . (١) . واللغة ترافق الانسان ، والانسان فى تغير دائم .

وذلك كله يدل على اتفاق لغات الجزيرة فى كثير من السمات ، وكثرة وجود الأبنية الثنائية المفردات ، ذات العلاقة الوثيقة المباشرة بالحياة الاجتماعية البدائية والوثيقة الصلة بشئون الحياة اليومية .

كما يؤكد الدلالة على أن المفردات الأولى للغة كانت ببساطة شئون الحياة ذاتها ، وتتعلق بالانسان وأعضاء جسمه ، مثل : (يد ، فم ، راس ، سن ، كف ، دم ...) . أو تتعلق بذوى قرباه ، مثل : (أب ، أم ، أخ ، عم ، بن ابن ، بنت ...) . أو تتعلق بأحداث الحياة البدائية ، مثل : (قام ، نام ، صال ، راح ، جاء ، شد ، يد ، عد ، هد ، كل ، خذ .) ثم جاءت الأبنية (الثلاثية) تحمل معانى حضارية ، تدل على الاستقرار واتساع الحياة والتأنق فى الصياغة ، والقصد الى الانتقاء .

---

(١) د . باكزه رفيق حلمى ، مجلة المجمع اللغوى الأردنى عدد ٢ مجلد / ١ ص ٦٠ وما بعدها ، بتصرف .

فاذا جاء من اسلافنا على أن : « كلام العرب مبنى على أربعة أصناف : على الثلاثى ، والرباعى ، والخماسى » . ثم يحكم بأن : « بنات الحرفين فى الكلام قليل » (١) .. قلنا : لا يمنعنا ذلك — كما لم يمنعهم — من الاعتراف بوجود البناء (الثنائى) مستقلا عن (الثلاثى) وليس منه ، وأنه نشأ فى المرحلة البدائية لنشوء اللغة .

كما سبق أن رددنا اعتبارهم الثنائى المعتل ثلاثيا سقط ثالثه لعلة ، لأن العلة لا علاقة لها بأصل البناء ، بل هى تغييرات صوتية محضة تطرأ عند الاسناد أو الاضافة لتغيير الدلالة الوضعية النحوية .

والميزان الصرفى ، انما هو وسيلة للكشف عن خفايا اللغة ، وأسرارها ، وتمييز أصناف مفرداتها ، وليس لتحسنيع الأصول ، واخضاع جميع المفردات له .

وفى دراسة قيمة وجادة للدكتورة باكزة رفيق حلمى ، تشير — أيضا — الى ان الثنائية ليست قليلة فى الأصول اللغوية ، وانما هى كثيرة فى العربية وشقيقاتها (الساميات) بل واكثر من ذلك فى جميع اللغات بعامة ، حين تنقل من (Blood Field) :

« ولو أجرينا دراسة دقيقة للمفردات وابنيتها فى اللغة العربية ، وفى لغات الجزيرة العربية الأخرى لوجدنا أن بالامكان ارجاع معظم مفردات هذه اللغات الى البناء الثنائى ، وهو أبسط صورة لبناء الكلمة ، ليس فى لغات الجزيرة العربية فقط ، بل فى جميع اللغات ، فالوحدات اللغوية الوحيدة المقطع (Monosyllagic) ربما كانت هى الأصول الأولى التى نشأت منها وتطورت الوحدات المتعددة المقاطع : اما بتغيير الحركات الداخلية ، واما باضافة مقاطع خارجية الى صدورها ، أو احشائها أو اعجازها . » (٢) .

وذكرت الدكتورة باكزة جهود علماء النحو واللغة العرب ، فى استقصاء أصول الكلمة ، وما يجرى عليها من تغيير ، وما يعتريها من تطور بالاعلال والابدال والقلب والحذف والادغام ... حتى توصلوا الى نتائج طيبة ومذهلة فى أبواب التصريف والاشتقاق ، ساعد عليها سعة العربية ودقتها ومرونتها .

---

(١) الكتاب لسيبويه ١٩٦/٢ ، ومعجم العين للخليل ص ٥٦

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى عدد ٢ م / ١ ص ٧٠ وما بعدها بتصرف .

وذكرت — بحق — أن بعض نتائج علمائنا ، بحاجة الى اعادة النظر فيها وفوق أسس علمية ، ساعدت الوسائل العلمية الحديثة على اكتشافها . وعذر الأقدمين فى ذلك انهم لم يكونوا يملكون من وسائل الاختبار سوى الفكر والتجربة الذاتية فى نطق الحروف ، وتحديد مواقعها فى جهاز النطق ، وعلى الرغم من ذلك : فقد أصابوا فى الكثير من نتائج أبحاثهم .. الى ان وصلت الى قول الخليل بن أحمد بأن « كلام العرب مبنى على اربعة اصناف: على الثنائى ، والثلاثى ، والرباعى ، والخماسى » وقالت :

« وأصاب فى ذكر الثنائى بأنه البناء الذى يتألف من صوتين صحيحين ، وذكر لذلك الأمثلة (قد ، هل ، لو ، بل) . ولكنه لم يصب ، اذ حدد هذه، بأنها تكون فى حروف المعانى فقط .

أما الاسم والفعل فلا يردان على اقل من ثلاثة . وفاته ان الكلمات الاسمية : (اب ، أم ، أخ ، عم ، فم) لا تختلف من حيث البناء وعدد الأصوات الصحيحة عن بناء الأمثلة التى ذكرها ، واساس البناء كما حدد هو الصوت الصحيح ، وربما كان السبب فى ذلك : هو خضوع المفردات الاسمية والفعلية للاعراب والاشتقاق والتصريف ، وجمود ابنية حروف المعانى فى حالة لا تقبل التغيير » .

فالخليل — فى نظر الدكتورة — مال الى الصناعة لا الى السليقة والطبيعة اللغوية ، التى يقضيها عهد الثنائية فى مفرداتها التى هى من مدخرات النشأة الأولى للغة ، فى عهد ما قبل التنبه للقياس ، ولذا يجب أن تعالج معالجة خاصة ، وفق منطق الواقع ، والتراث القديم . وقد كان الخليل — رحمه الله — يعتمد على ذواقه للأصوات : فقد كان يفتح فاه بالف ، ثم يظهر الحرف ، نحو : (أب ، أت ... الخ) .

واشارت الدكتورة باكزة ، الى أن (الأكدية) — هى من أقدم صور لغات الجزيرة العربية وقوية الصلة بالعربية — تلتزم بالاعراب فى جميع الحالات ، ونهايات الاسم ، تحمل علامات الاعراب بأصوات المد (و ، ى) وليس بالحركات كما فى العربية وضمت علامات الاعراب فى الأكدية عند الكتابة ، ومع ضم فهى ثنائية فى مثل : (طيب = (Tabu) بعيد = (Raku) رب = (Rabu)) .

وعادت الدكتورة باكزة الى لغات الجزيرة العربية بعامة ، والعربية بخاصة ، وذكرت أن المقارنات أثبتت انها تتفق جميعا فى ان الصيغة الثنائية فيها — الاسمية والفعلية — تشمل طائفة كبيرة جدا من المفردات تكاد تفوق الثلاثيات عدا .

وانها تنتظم الفئات الآتية :

١ — الأفعال الناقصة من حيث التصريف والوظيفة النحوية ، وعددها — كما ذكر النحاة — سبعة عشر ، منها احد عشر فعلا ثنائيا ، هى : كان ، صار ، ظل ، بات ، آض ، عاد ، غدا ، راح ، ما (برح) ، ما (دام) ، ما (زال) وليس (١) وفى الأكدية ما يماثل ذلك ، مثل (Kano) وكذا فى العبرية .

٢ — والأسماء المعروفة بالأسماء الستة ، من النحاة من يعربها بالحركات ، ومنهم من يعربها بالحروف ، وهى فى الحقيقة لا تخضع لأحكام الاعراب المعروفة ، لانها من ذوات المقطع الواحد القصير ، ويتطلب الصاق اللواحق بها من مد حركاتها النهائية ، كما فى نحو : (أبوك وأخوك وفوك) .

وعند الافراد أن تعرب كما تعرب الأسماء الأخرى ، (جاء الأب ، ورأيت الأخ) . (٢) وفى الأكدية مايقابلها ، نحو : (Hamu, Anu, Abu) وكذلك فى العبرية . ويلاحظ هنا أن بعض هذه الأسماء احادية البناء فى اللغات الثلاث (الأكدية ، والعربية ، والعبرية) : اى أنها تتألف من صوت صحيح واحد وحركة مد طويلة . وفى الأكدية والعبرية عدد وفير من هذه الكلمات الأحادية .

٣ — الأسماء الثنائية ، عدا الأسماء الستة ، الوحيدة المقطع ، وهى كثيرة فى جميع اللغات العربية .

وهى اما أن تكون وحيدة المقطع قصيرة الحركة ، وتكون على أصناف ، فمنها :

(أ) ما يكون مفتوح الأول ، وهو الغالب ، نحو : (قد ، يم ، يد ، دم ، غم ، هم ، كف ، دف ، رف ، خد ، جد ، صف ، بط ، رب ، حج ، طب) .

---

(١) الكافية (شرح الاسترابادى) ٢ / ٢٩٠

(٢) همع الهوامع ، السيوطى ، ٣٨/١

(ب) وما يكون مضموم الأول ، نحو : (أم ، دب ، جب ، خف ، در ، مر ، حق ، بر) .

(جـ) وما يكون مكسور الأول ، نحو : (قط ، هر ، زق ، رق ، شص ، دن ، كن) .

وفى اللغات الأكدية ما يقابلها تماما .

٤ — الأسماء الثنائية ، ذات النهايات الحركية الممدودة ، نحو : (فتى ، صبا ، هوى ، نوى ، جوى ، عصا ، قفا ، مها ، علا ، سهـا ، ربـا) .

٥ — الأفعال المعتلة ، وذكر النحاة ثلاثة أصناف منها : المثال ، نحو : وعد ، وهب . والأجوف ، نحو : قال ، مال . والناقص ، نحو : سعى وجرى ودعا .

ولو امعنا النظر ، لوجدنا ان المثال الأول سالم وليس معتلا : فالواو فى (وعد) ليس صوتا حركيا او حرف علة ، بل هو صوت صحيح ، مخرجه من بين الشفتين كالياء والميم ، واختفاؤها عند تغيير البناء ليس واجبا ، وانما هو ظاهرة حضارية ثبتت فى اللغة الكتابية فقط وبقيت فى لهجات الكلام ، فنحن نقول : (يوعد) ، و (يوهب) . وهو بذلك ثلاثى صحيح .

أما المثالان الثانيان — فى الأجوف والناقص — فهما ثنائيان ، وحرفا المد فيهما حركتان طويلتان .

وخلصت الدكتورة من كل ما سبق — وأنا معها — الى أن :

« المفردات الثنائية تفوق فى العدد الثلاثيات ، وأن معظم الثلاثيات تطور من أصول ثنائية (١) .

وفى ختام دراستها القيمة ، تدعو الباحث الى ملاحظة الأحاديات فى لغات أخرى ، كالانجليزية ، فى نحو (Zoo, See, Do, Too, You, we, He, Se, Tea) ، وفى الفارسية ، نحو : (دو = اثنان ، شا = الملك العظيم ، مو = شعر ، سى = ثلاثون ، رو = وجه ، دو = غاية ، خو = عادة ، تا = صفحة ، با = قدم) .

وفى اللغة الكردية ، نحو : (دو = اثنان ، مو = شعر ، رو = وجه ، شو = زوج ، جو = شعير ، خو = عادة ، رى = طريق ، دى = قرية) .

وقد اطلنا فى هذا المقام ولنا عذرنا ، لأن الكثرة من الباحثين دابت على القول السريع ، بأن الثنائية فى لغتنا قليلة .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى جـ ١ عدد ٢ ص ٧٠ وما بعدها بتصرف .

بحث الثنائية ليس ترفا عقليا

● والبحث فى نظرية « الثنائية » ليس ترفا عقليا ، ولا أمرا هامشيا ، ولا يتقوقع فى دقة تخصصية :

فمن الاعتراضات الشكلية على بحث مشكلة « الثنائية » ما اثاره الأستاذ عبد القادر المغربى معترضا على آراء الأب مرمرجى — بقوله :

« واللغة العربية الى غير هذا — من الخدمات المتواضعة — أحوج ، والى نوع آخر من الغذاء الاصلاحى أنجع وانضج » . (١)

وهذا فى رايى الغاء فج للمسألة من اساسها ، وغلق لباب بحث تحتاجه العربية للتأصيل والوصول الى الحقيقة فى مسائل طال بحثها فى غير ما تكاتف وامعان ، فبقى الخلاف معلقا لها ، والضباب مخيما حولها .

ولذا يرد الأب مرمرجى على الأستاذ المغربى فى موضوعية مشوبة بالقسوة ، حين يصفه بأنه : « من المتمسكين بالقديم ، وغير الواقفين على كنه (الثنائية والالسنية السامية) ، لجهله — ما عدا العربية — بقية الألسن السامية وقواعدياتها وأسرارها وتاريخها ، وما تفترض مقارنتها من المعلومات والأساليب التقنية ، وهذا مما يؤسف عليه ، فان الأستاذ — مع كونه اماما فى العربية — يعسر عليه المناقشة فى ذات الموضوع » .

ثم يسوق الكلام الى كل معارض للثنائية ، بقوله : « فكأنى بحضرات ائمتنا الأجلاء ، يؤثرون بقاء المعجمية على ما هى عليه من الاضطراب ، والتضارب ، والتنافر ، والتناقض فى اشتقاق الألفاظ وتطور معانيها ، على أن تنسق ويعلل سياقها ، فيتجلى فيها الانسجام والتساوق والمنطقية » .

ثم يعود الى الحدة ، والثورة على المألوف ، ويلتمس العذر للأقدمين بقوله :

« وذلك لأن الوسيلة المقترح استخدامها ، لبلوغ هذا الأرب ، هى : (الثنائية ، والألسنية) وهو ما لم يألفوه ، فلا تستمرئه ذهنيتهم التقليدية .

---

(١) معجميات عربية سامية ص ١٠٨

ولا أغالى اذا جزمت بأن نفس اللغويين الأقدمين — الذين تفردوا بالذكاء والعبقرية — لو عاشوا فى زماننا ، وأتقنوا معرفة اللغات السامية ، ووقفوا على تقدم العلوم الالسنية فى الأصقاع الغربية ، لجحدوا كثيرا من نظرياتهم ، واعتنقوا المذاهب المستحدثة — على أن ما تعذر على القدماء عمله ، من الهين اليوم على شيوخ اللغة اجراؤه فى معاهدهم ، ولا سيما فى وسط المجامع اللغوية ، وبنوع أخص بين اعضاء لجان وضع المعاجم الحديثة » (١) .

ومن النقد الشكلى أيضا لنظرية « الثنائية » ، فى نقد كتاب « هل العربية منطقية » للأب مرمرجى . ما ذكره الدكتور احمد فؤاد الأهوانى ، اذ وصف مثل هذا البحث بأنه « بحث خاص ، يهم المشتغلين باللغة وأصولها واشتقاقها ، ويهم المجمع اللغوى (المصرى) بشكل خاص .

ويتساءل : هل اطلع المجمع اللغوى على البحث ؟ واتخذ قرارا بشأنه أم لا .

كما يصف الثنائية بأنها هدامة للثلاثية والرباعية ، ومقوضة لأركان المعاجم (٢) .

ويرد الأب مرمرجى على شق الاعتراض الأول ، بأن المجمع حبذ عمله وأثنى عليه ، وانه تلقى رسالتى استحسان من صاحب السعادة المرحوم محمد توفيق رفعت باشا ، رئيس المجمع ، ومن صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا . كما يتمنى المؤلف أن تتبنى المجامع اللغوية نظريته ، لتوافر الوسائل العلمية والتقنية والمادية ، ومؤازرة المخلصين .

ويرد على الشق الثانى بأن :

« الثنائية فى أعيننا غير هدامة الثلاثية ولا الرباعية ، ولا هى مقوضة اركان المعاجم ، انما هى وسيلة التأصيل السابق طور « التصريف » :

فالقائل بالثنائية يدع التصريف على ما هو للثلاثى والرباعى ويحصر عمله فى المعجمية ..

وفى هذا الحقل عينه لا يتوخى محق الثلاثية والرباعية من اللغة ، لكنه يرتئى بأنه : كما ان الرباعى يسوغ رده الى الثلاثى كذلك يمكن رد الثلاثى

---

(١) المصدر السابق .

(٢) مجلة الثقافة المصرية عدد ٥٣١

الى ثنائى ، مما ينجم عنه أن الثلاثى ليس بدء الاشتقاق ، بل الثنائى .

ويرى عمليا أن فى هذه النظرية للمعجمية فوائد جمة ، منها تجلى الانسجام والتساوق والمنطقية فى تشعب الألفاظ بعضها عن بعض .

وتوسع المعانى وتطورها ، مما هو واضـــح الفقدان فى الحالة الثلاثية الحاضرة .

فمن ثم لا خشية على المعاجم من الثنائية ، لأنها بالعكس تنشىء فيها تنظيما معقولا منطقيا .

كما أن ترتيب المعاجم الحديثة مثل : محيط المحيط ، وأقرب الموارد ، والبستان ، لم يضر بالمعجمية ، بل نفعها ، وان خالف بالواقع تنظيم (القاموس المحيط ، واللسان ، والتاج) ، أو بالأحرى : قلة التنسيق فيها (١) .

غير أنى أبادر فأقول : ان بحث الثنائية ، سيضيف الى الأبحاث اللغوية فى العربية أعباء كبيرة تتطلب منا تضافر الجهود :

فسيوجب علينا ذلك من جديد دراسة تاريخ العربية ووصفها وتطورها .

وسيوجب علينا : أن نعيد النظر فيما قعده اللغويون فى بابى الاعلال والادغام ، وما أرسوه من نظريات ، وما تخيلوه من تعليلات ، وما سلموا به من أوزان :

فوزان قط بالتشديد (فع) لأنها عين الكلمة لا فعل كما ذكروا على أنها لام الكلمة ، اذا قلنا : قطع بالتشديد على وزان فعل بالتشديد .

وسنعيد النظر فى سلاسل الاشتقاقات ، وخاصة غير القياســـية منها ، لبعثها وبحثها والانتفاع بها ، للاثراء والتنمية اللغوية ، وجعلهـــا مطردة — ولو على رأى الكوفيين — للاستفادة من مادتها فيما تمطرنا به محدثات العصر الحديث صباح مساء ، من مدلولات اجتماعية تحتاج لألفاظ لغوية ، ويكاد هذا الجديد يصل كل يوم الى خمسين كلمة (كما ذكر المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى) .

وحين تقف العربية بكماء بلهاء أمام هذا الطوفان ، سيرميها أبناؤها — قبل اعدائها — بالعقم ، وليست العربية عقيمة ، وانما هى ولود مرنة مطواع .

---

(١) معجميات ص ١١٣

وسنراجع — فى ضوء النظرية من جديد — الأصول الثلاثية غير السالمة (اى المضعفة والمضاعفة والمهموزة والمعتلة بأقسامها : المثال ، والأجوف ، والناقص ، واللفيف المفروق والمقرون) وكذلك مشتقاتها ، ومعالجتها فى ضوء المبادىء الحديثة (للفونولوجيا : Phonologie) .

وسيلاقى وزن (فعلل) تحفظات جديدة ، اذ لا يصلح بشكله الحاضر لقياس الأصول الرباعية خاصة ومشتقاتها عامة .

بل اننا سنضطر الى ان نزن الرباعى المضعف ، مثل : وسوس ، على فعفع ، لا على فعلل ، اذ أنه مكرر من ثنائيين .

ولن تبقى حروف الزيادة محصورة فى حروف (سألتمونيها) . اذ أمكن تشديد كل الحروف الأبجدية فى العربية .

وستحتاج الثنائيات التى انتقلت الى ثلاثيات — وكذلك مشتقاتها بالشد والمد — الى أوزان خاصة بها ، وليست على وزان (فعل) .

ولا يخيف ذلك وغيره سدنة العربية وحماتها : فمتى صحت العزائم ، وعلت الهمم ، وقوى الدفع ، وخلص الاخلاص ، فستخدم لغتنا وفخرنا ، وسنبنى كما بنت اجدادنا ، ونفعل فوق ما فعلوا .

* * *

وبعـــد

فتاريخ اللغات السامية فى أكثر نواحيه غامض ، ورمال الجزيرة العربية — وهى موطن الساميين — لا تفصح عما يصف هذا التاريخ البعيد .

ولذلك سيظل الاختلاف بين الثنائيين والثلاثيين قائما بين أبناء العـــربية وغيرهم ، وسيجد كل فريق ما يبرر به القبول أو الرفض لهذه النظرية أو تلك . وسيبقى الأمر كما قال الأب (هنرى فليش) :

« ان التحليل الداخلى للكلمة العربية او السامية ، لتمييز الأصـــول الثنائية لما ينته الى نتيجة مرضية ، ولعله من المحال ان يحدث هذا . وخلاصة القول : ان مشكلة الثنائية لما تلق حلا » (١) .

---

(١) العربية الفصحى ص ٢٥١

واذا كان علماء التاريخ ، وعلماء « الأنثربولوجيا » يتنازعون الرأى فيما بينهم أشد الاختلاف ، مع خبر يروى ، أو أثر يذكر ، أو شاهد يرجح ، أو حفريات تهدى .. فان باحثى اللغات أشد حيرة ، وأكثر اختلافا ، وأوسع متاهة .. حين يصمت التاريخ ، ويندر الشاهد ، ويعز الأثر ، ويفتقد الدليل ، وتضيع الوثائق .

ولكن قياس الغائب على الحاضر ، واعمال العقل فى المأثور على قلته باعتبار أن الظاهرة تشيع .. وتقليب الفكر فيما سبق مما ذكرناه ، يجعلنى أقرر وأنا مطمئن :

الى أن عددا كبيرا جدا من الأصول الثلاثية وما فوقها يرد الى أصول ثنائية الأصل .

وأن الجذور الثنائية أصيلة وثابتة فى لغتنا ، وغير قليلة .

ولعلى بذلك الجهد المتواضع أكون قد قدمت شمعة على طريق البحث ، تهدى السائرين ، وتحفز الباحثين على التنقيب عن الحقيقة ، حتى يرى الضوء جانب من جوانب العربية ، بقى زمنا فى حجاب مستور .

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » (١)

---

(١) الأحزاب : ٤

المراجـــع

١ ـــ الأب انستاس مارى الكرملى وآراؤه اللغوية : د . ابراهيم السمرائى ، ط المعرفة بمصر سنة ١٩٦١م

٢ ـــ الاتقان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى ، ط ثالثة القاهرة سنة ١٣٧٠هـ

٣ ـــ جمهرة اللغة : لابن دريد الأزدى ـــ ط حيدر آباد ـــ الهند ١٣٤٤ هـ

٤ ـــ الخصائص : لأبى الفتح عثمان بن جنى ، تحقيق الشيخ النجار ، ط دار الكتب المصرية سنة ١٣٧١ هـ

٥ ـــ عبقرية اللغة العربية : للأستاذ محمد المبارك . ط دار الفكر ببيروت

٦ ـــ العين : للخليل بن أحمد ، تحقيق : د . عبد الله درويش ، ط القاهرة

٧ ـــ الفلسفة اللغوية لجورجى زيدان ـــ القاهرة سنة ١٨٨١ م

٨ ـــ فى التطور اللغوى : د . عبد الصبور شاهين ، ط أولى القاهرة سنة ١٣٩٥هـ

٩ ـــ فقه اللغة العربية : د . ابراهيم محمد نجا ، ط السعادة بمصر سنة ١٩٧٥م

١٠ ـــ فقه اللغة المقارن : د . ابراهيم السمرائى ، ط بيروت سنة ١٩٦٨م

١١ ـــ اللغة وخصائص العربية : للأستاذ محمد المبارك ، ط ثالثة بيروت سنة ١٩٦٨م

١٢ ـــ فى علم اللغة العام : د . عبد الصبور شاهين ، ط ثانية ، القاهرة سنة ١٣٩٧هـ

١٣ ـــ فى اللهجات العربية : د . ابراهيم انيس ـــ القاهرة

١٤ ـــ الكتاب : لسيبويه ، ط بولاق بالقاهرة سنة ١٣١٦هـ

١٥ ـــ الالسنية العربية : للأستاذ ريمون طحان ، ط دار الكتاب اللبنانى بيروت

١٦ ـــ اللغة : ج . فندريس ، تعريب : الدواخلى والقصاص ، ط القاهرة سنة ١٩٥٠م

١٧ ــ اللغة العربية فى عصور ما قبل التاريخ : للأستاذ أحمد حسين. شرف الدين سنة ١٩٧٥ م

١٨ ــ اللغة العربية عبر القرون : د . محمود حجازى (المكتبة الثقافية). عدد ١٩٧

١٩ ــ اللهجات العربية : د . ابراهيم أنيس . القاهرة

٢٠ ــ من أسرار اللغة : د . ابراهيم أنيس . مصر سنة ١٩٥١م

٢١ ــ المزهر فى علوم اللغة وأنواعها : للسيوطى ، ط الحلبى بمصر سنة ١٣٧٨هـ

٢٢ ــ المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ، للأب : أ . س مرمرجى الدومنكى . ط فى القدس سنة ١٩٣٧م

٢٣ ــ معجميات عربية سامية : للأب : أ . س مرمرجى الدومنكى ، ط لبنان سنة ١٩٥٠م

٢٤ ــ مقدمة لدرس لغة العرب : للشيخ عبد الله العلايلى ــ القاهرة سنة ١٩٣٦م

٢٥ ــ مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تحقيق : الأستاذ عبد السلام هارون. القاهرة سنة ١٣٦٦هـ

٢٦ ــ نظريات فى اللغة : للأستاذ أنيس فريحه ، ط دار الكتاب اللبنانى ــ بيروت

٢٧ ــ نشأة اللغة عند الانسان والطفل : د . على عبد الواحد وافى ، ط ثانية القاهرة

٢٨ ــ نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها : للأب مارى أنستاس. الكرملى ، ط سنة ١٩٣٨م

٢٩ ــ الوجيزفى فقه اللغة : للأستاذ محمد الأنطاكى . ط الشهباء بحلب سنة ١٣٨٩هـ

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٤٠٨ / ١٩٨٠

للمؤلف

١ ـ علم اللغة العام

٢ ـ المشترك اللغوى نظرية وتطبيقاً

٣ ـ أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

٤ ـ عوامل تنمية اللغة